سيرة سيف بن ذى يزن

بقلم الدكتورة نبيلة ابراهيم

« على الرغم من أن الحكاية الشعبية فى حد ذاتها معقدة للغاية ، فانها ليست بحال من الأحوال ، أقل تعقيدا من الشخصية الفـردية أو من المجتمع » .

ج.ل.فيشر

ان انتاج الأدب الشعبى العربى من الحكايات الشعبية وفير للغاية . ولعل أهم ما خلفه لنـا هذا الانتاج تلك السير العـديدة التى تكشف كل منها عن واقع تاريخى محدد عاشه الشعب العربى فى فترات كفاحه ونضاله . وربما تصورنا أن بعض هذه السير قد سبق البعض الآخـر فى زمان تأليفه وانتشاره ، فالأدلة العلميـة لا تسعفنا فى محاولة تأريخها زمنيا ، ولكنها على كل حال كانت تروى جميعا ، قبل تدوينها ، فى زمن واحد تقريبا ، وهو زمن مبكر نسبيا اذا قيس بالعصر المتأخر الذى دونت فيه . فالسموءل ابن يحيى المغربى ، اليهودى الذى اعتنق الاسلام عام ٥٥٨ هـ ، يحدثنا فى مذكراته (١) ، أنه كان يستمع الى سيرة الأميرة ذات الهمة وسـيرة سيف بن ذى يزن وسيرة عنتـرة ، ويهمنا نص السموءل من حيث أنه يشير الى أن السير الشعبية كانت تعيش معا مادة حية ، وأن الشعب العربى كان يستمـع اليها جميعا ، ومعنى هـذا أن الموضوعات المتنوعة التى تتناولها كل سيرة على حدة كانت تلبى احتياجات نفسية واجتماعية لدى الشعب العربى . ولعل هذا يدفعنا الى الحرص على دراسة السير العربية دراسـة علميـة وفقا لأحدث مناهج دراسة الأدب الشعبى ، لأنهـا بلاشك ، تساعد مكتملة على الكشف عن روح الحياة العربية الاسلامية ، ذلك الكشف الذى يعد أساسا لدراسة تراثنا الشعبى الحديث الذى نسعى الآن جاهدين الى الكشف عنه ودراسته وتحليله .

Martin Scheiner: b. Yahya al Magribe undseiner Schrift (Monatsschrift für Geschichte und Wissenschaft des fudentums. Iahigen 9 42 Berlin 1898, S. 127.

وقد سبق أن قدمنا دراسة لسيرة الأميرة ذات الهمة فى عددين متتاليين من تراث الانسانية وبينا كيف أن السيرة تحكى فى شكل قصصى مكتمل عن واقع تاريخى عاشه الشعب العربى فى فترة من فترات كفاحه ونضاله الطويلين . ولم تحرص السيرة على عرض الحوادث التاريخية فحسب ، بل حاولت من خلال عرضها البالغ فى الاسهاب أن تصور لنا مجتمعا وفردا يعيش فيه ، وهما الاثنان يتصارعان من أجل تطور المجتمع وتطور الفرد على حد السواء .

وبينما كان المجتمع العربى يستمع الى سيرة الأميرة ذات الهمة وهى تصور له حوادث يعيش فى أعقابها ، بل يعيش فيها وان اختلف شكلها ، كان يستمع فى الوقت نفسه الى سيرة تحكى له عن حوادث عاشت فى الزمن البعيد هى سيرة سيف بن ذى يزن . ومع ذلك فان الشعب العربى كان يتقبل هذه السيرة بنفس الاستعداد النفسى والمتعة اللتين كان يستقبل بهما سيرة أخرى مثل سيرة الأميرة ذات الهمة ، الأمر الذى ساعد على أن تعيش السيرتان جنبا الى جنب على الرغم من تفاوت الحوادث زمنيا ، وعلى الرغم من الاختلاف الشكلى الجوهرى الذى تعرض كل سيرة من خلاله حوادثها .

ويهمنا الآن أن نقدم ملخصا لسيرة سيف بن ذى يزن حتى يمكننا أن ندرسها وفقا لمنهج تحليلى محدد سنشير اليه فيما بعد .

كان الملك الحميرى ذو يزن حاكما فى بلاد اليمن . وذات يوم قرر أن يغزو الشام حيث يحكم الملك بعلبك ، فرحل بصحبة جيشه ووزيره يثرب .. وفى أثناء الطريق شاهد الملك وزيره يسجد ويصلى عند بيت الله الحرام .

فلما سأله الملك عن سبب سجوده قال له : « اعلم أيها الملك الهمام والأسد الضرغام أنى رأيت فى الكتب القديمة والتواريخ والملاحم العظيمة أن الله تبارك وتعالى يبعث فى آخر الزمان نبيا هاشميا قرشيا اسمه محمد صلى الله عليه وسلم ، وهو أول الأنبياء وخاتم المرسلين ويهاجر من مكة الى هذه الأرض الطيبة الذكية ويكون بها مسكنه وقبره . وانى أريد من حضرة سعادة الملك أن يعطينى اذنا أن أبنى بها مدينة واسميها باسمى . وأن هذا النبى يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ويظهر الآيات البينات والمعجزات الباهرات » . (١) فأعطاه الملك اذنا ببناء المدينة التى سميت باسمه يثرب ، كما استطاع الوزير أن يقنعه بحقيقة الايمان وبدين الاسلام الذى سوف يحمل النبى محمد رسالته بعد ذلك ، فاقتنع الملك وأسلم على يديه . واستأنف الملك ووزيره السير الى بلاد الشام حيث دارت مبارزة بين الملك ذى يزن والملك بعلبك ، غلب فيها الملك ذو يزن واستولى اثر ذلك على بلاد الشام . ثم قرر الملك ذو يزن أن يرحل بعد ذلك الى بلاد الحبشة والسودان ، الى الملك سيف أرعد وكان لسيف أرعد وزيران يسديان له النصيحة هما الحكيم سقرديوس والحكيم بحر قفقان الريف . فلما سمع سيف أرعد بقدوم الملك ذى يزن عليه يبغى حربه ، طلب النصيحة من وزيريه اللذين نصحاه بألا يقدم على حرب الملك الحميرى حتى لا تتحقق دعوة النبى نوح عليه السلام . فلما سأل الملك عن هذه الدعوة قال له سقرديوس : « اعلم يا ملك الزمان وفريد العصر والأوان والحاكم

(١) سيرة سيف بن ذى يزن · جـ١ ص٩ (مكتبة الجمهورية العربية ــ القاهرة) ·

على جميع الحبشة والسودان ، أنه كان في قديم الزمان نبى يقال له نوح عليه السلام فأمرقومه أن يتبعوه فى قوله وآمره ونهيه فخالفوه فدعا عليهم فنزل من السماء مطر ونبع من الأرض ماء وقطر فغرقهم جميعا كل من كان خالف من قومه ، ونجا هو ومن تبعه . ففي يوم من الأيام نام فى القيلولة وأولاده سام وحام جلوس عنده فهب الهواء على نوح فانكشفت عورته لأجل بيان سره وقصته . فتقدم سام فغطى عورة أبيه فلما نظر حام عورة أبيه لم يستره وضحك عليه ، فانتبه نوح من منامه وما كان فيه من لذيذ أحلامه فوجد الولدين يتشاجران ويتخاصمان وكان حام جالسا عند رجليه وولده سام جالسا عند رأسه وكانوا فى ذلك الزمان لم يعرفوا لبس السراويل ، فلما انتبه نوح من منامه وجد حاما متبسما ووجد ساما غاضبا فقال لهما : مالكما تتخاصمان وما الذى أنتما فيه تتشاجران فذكر له ولده سام ما وقع من أخيه حام وكيف ضحك على كشف عورته ولم يستره . (قال الراوى) فنظر نوح الى ولده حام وهو مغضب ودعا عليه وهو مجاب الدعوة وقال له : سود الله وجهك ونسلك وجعل نسلك وذريتك خداما وعبيدا لذرية أخيك سام ابن أمك وأبيك وأنا نخاف أيها الملك الحاكم علينا أن هذه الدعوة تنفذفينا على يد هذا الملك الوارد علينا .» ولهذا فقد قرروا أن يستبدلوا الحرب بخديعة تحقق نتيجة فعالة لا يحققها القتال . فنصح سقرديوس الملك سيف أرعد أن يرسل الى الملك ذى يزن جارية حسناء تحمل له السم بين خصلات شعرها ،حتى اذا ما ركن الملك ذو يزن اليها منفعلا بسحرها، قضت عليه بسمها . ورحلت قمرية الجارية الحسناء تحمل الهدايا والسم الى الملك ذى يزن.

ولم تجد الحيلة لأن بحر قفقان الريف ، الذى كان قد قرأ عن الدعوة الاسلامية كذلك ، كما أن أصله يرجع الى بلاد الحجاز ، أرسل يخبر الملك ذا يزن بالحيلة قبل أن يقع فى شراك قمرية. وبهذا اكتشف سر قمرية . ومع هذا فقد وقع ذو يزن أسير حبها وتزوج بها وأنجب منها ولدا ولد بعد وفاة الأب ذى يزن . وورث الابن علامة تميزت بها أسرة ذى يزن الحميرى وهى شامة على خده .

ولما كانت قمرية قد أصبحت ملكة بعد وفاة زوجها ، فقد خشيت أن يشاركها ابنها الحكم حينما يكبر ، ولهذا فقد عزمت على ابعاده عن بلاده منذ صغره ، وطرحت به ، وهو رضيع ، بعيدا فى الخلاء . وهناك عطفت عليه غزالة وأرضعته ثم رحلت بعيدا عنه . ولم تكن تلك الغزالة سوى ملكة مسحورة من ملوك الجان متزوجة بالملك الأبيض الذى يسكن بجبل القمر عند منابع النيل . وكانت لهذه الملكة ابنة تسمى عاقصة فأصبحت تلك الابنة الجنية أختا لولد قمرية فى الرضاع .

وبعد أن تركت الغزالة المسحورة الابن ، رحلت الى زوجها وأخبرته بما رأت ، فلامها على تركها الطفل وحيدا وألزمها أن ترحل مرة أخرى لتحضر الطفل فترعاه حتى يشتد عوده . ورحلت الغزالة المسحورة لتحضر الطفل ، ولكن صيادا كان قد عثر عليه وأحضره الى الملك أفراح ملك ذلك المكان . وكانت قد ولد للملك أفراح ابنة سماها شامة ، اذ ولدت بشامة على خدها شبيهة بشامة ابن ذى يزن تماما . فرحب الملك أفراح بالولد وقرر أن يربيه مع ابنته شامة كما أطلق عليه اسم وحش الفلاة ، حيث

أنه وجد وحيدا فى الفلاة . ولما علم الوزير سقرديون ــ أخ الوزير سقرديوس وزير الملك سيف أرعد ــ بذلك ، حذر الملك أفراح من فعلته تلك ، اذ أنه قرأ فى الكتب أن هلاك آل حام سيتحقق اذا التقت شامتان من نوع واحد . ولم يقر لسقرديون قرار الا عندما حضرت الغزالة المسحورة وأخذت الطفل ليتربى عندها على أن تعيده الى الملك أفراح بعد ثلاث سنوات.

ومرت السنوات الثلاث ، وبرت الغزالة المسحورة بوعدها وأحضرت وحش الفلاة الى الملك أفراح وحذر الوزير سقرديون الملكأفراح أمرة أخرى، وارغمه على ابعادوحش الفلاة ، فأرسله الملك أفراح الى انسان ماردهو عطمطم خراق الشجر والذى تعلم وحش الفلاة على يديه فنون الشجاعة . وبعد فترة تعلمفيها وحش الفلاة فنون الشجاعة وأساليب القوة، تركه عطمطم ليعود الى أهله . فسار وحشالفلاة على غير هدى حتى تقابل مع رجل أعجمى كأنه واقف ينتظر قدومه منذ زمن قال له الأعجمى : اعلم ياولدى أنى يقال لى عبد لهب وقد قرأت شيئا كثيرا من الكتب فرأيت فى ذلك الغار كنزا وهو فى ذلك المكان من قديم الزمان وعليه الخدام من الجان وفيه سوط من الجلد مطلسم وعليه الخدم فى ذلك البر والآكام ولا أحد يأخذ ذلك السوط من دون الملا الا غلام يقال لهوحش الفلا غريب يأتى من ذلك البر والخلا (١) •وكان الأعجمى يود أن يستدرج وحش الفلاة حتى يحضر له السوط السحرى ثم يتنكر له• ولكن وحش الفلاةأسرع فىاحضار السوط

(١) السيرة • جـ١ ص٤٣ •

وضرب به الاعجمى فقضى عليه • ورجع بالسوط الى بلاد الملك آفراح •

وهناك علم أن شامة ابنة الملك أفراح قد سلط عليه جنى أراد الزواج بها ، بل حددلذلك ميعادا يأتى فيه ليأخذها . وقد تصادف مجيئه معوصول وحش الفلاة الذى هوىعليه بالسوط وقضى عليه .

وطلب وحش الفلاة أن يتزوج بشامة . ولم يكن الملك أفراح رافضا لهذا الزواج ، وانما كان مترددا بين حبه لوحش الفلاة واعجابه بشجاعته من ناحية ، وتحذير سقرديون له من التقاء الشامتين من ناحية أخرى .. ولهذا فقد أوعز سقرديون للملك أفراح أن يضع العقبات أمام وحش الفلاة فى سبيل اتمام هذا الزواج. فطلب منه أولا أن يحضر رأس عبدون الزنجى، البطل المغوار الذى لا يشاركه أحد بطولته.. ورحل وحش الفلاة ليحضر رأس عبدون. وتقابل معه وحش الفلاة ودارت بينهما معركة حامية « فبرك عليه وحش الغلاة وسل خنجره فى ذلك البر والخلا وحطه على منبت شعر فأيقن عبدون بهلاكه وعدمه . فقال يا سيدى وحش الفلاة ، أنت فريد الدهر والعصر ، أتريد أن تذبحنى ذبح البقر فى ذلك البئر والهجر ؟ فرفع يده عن رقبته وقام من وقته وساعته فعندها قام عبدون وقعد ومد يده وراءه وقال اضرب رأسى هكذا يا سيد الفرسان والأبطال . » (٢) عند ذلك استحى وحش الفلاة أن يقتله ، وتحول العداء بذلك الى صداقة ، وأصبح عبدون من رجال وحش الفلاة المخلصين . وبدلا من أن يرجع وحش الفلاة برأس عبدون رجع به حيا الى الملك أفراح .

(٢) جـ ١ ص ٦٣ •

ولم يتمكن الوزير سقرديون من الاعتراض على مافعله وحش الفلاة ، ولكنه أوحى الى الملك أفراح أن يلقى عليه تبعة أخرى بقصد ابعاده عن شامة ، وهى أن يحضر كتاب النيل حلوانا لزواجه بشامة . « فقال وحش الفلاة وايش مرادك بهذا الكتاب وما فائدته فى هذه الأرض والهضاب فقال الحكيم أيها البطل الفضيل والسيد الجليل من يبقى عنده هذا الكتاب تصير جميع الحبشة والسودان تبعا له . » (١) فعزم وحش الفلاة على احضاره مهما كلفه هذا من ثمن .

فسار وحش الفلاة ممتطيا صهوة جواده « مدة ستين يوما بالتمام وهو يقطع الطرقات فى البرارى المقفرات ولم يجد فى طريقه أحدا من المخلوقات فأشرف على جبل عال وحوله روضة نزهة للناظرين بها أشجار باسقة وأنهار دافقة .... وفى جانب ذلك الجبل من أعلاه صومعة ، فسار حتى وصل الى تلك الصومعة وهو يقول لعل الله تعالى أن يجعل فى ذلك المكان منفعة . ولما وقف على باب تلك الصومعة سمع من داخلها صوت انسان يذكر الرحيم الرحمن وهو يقول : يا حنان يا منان ارحم عبدك الفان ، أنت الباقى وكل من عليها فان . فلما سمع وحش الفلاة ذلك الانسان اطمأن قلبه ولكن ما يعلم ان كان هذا من الانس أو من الجان فتقدم وحش الفلاة الى باب الصومعة ودموعه على خدوده متتابعة وصاح السلام عليك يا أيها الساكن فى هذا المكان ان كنت من الانس أو من الجان لأنى ما رأيت غيرك فى هذه الوديان .. واذا ذلك الشخص يقول له عليك السلام ورحمة الله وبركاته وأهلا وسهلا بملك بلاد اليمن وغيرها من الأمصار والدمن ، الحاكم على هذه الأقطار وسائق النيل من بلاد الحبش الى أراضى الأمصار ، مانع الظلم والفتن وحاكم صنعاء وعدن وصحارى الحبش وما يتبعها من القرى والمدن ، الملك سيف بن ذى يزن . انزل يا ملك عن الحصان واربطه تحت الصومعة فى تلك الصخرة واصعد الى فى هذا المكان يا ملك الزمان حتى أتأنس معك بالكلام ... فلما سمع وحش الفلا ذلك المقال قال : ياعمى لمن تقول هذا المقال وأنا اسمى وحش الفلا بين الرجال فقال له : صدقت يا ملك الزمان فى هذا المقال، واعلم أن هذا الاسم سماك به الملك أفراح ، وأما اسمك الأعلى فهو سيف من عند الملك الفتاح » (٢)

وهكذا حدد الشيخ لوحش الفلا شخصيته عندما نطق باسمه الحقيقى واسم أبيه ، كما حدد له مهام أموره فى المستقبل .فلما سأله سيف عن مكان كتاب النيل قال له : «أنت اذا طفت الدنيا من الشرق الى الغرب ، لا تعرف طريق هذا الكتاب الا اذا كانت لك عناية من الملك الوهاب ولكن حيث أنك دخلت فى دين الاسلام يلزمنا مساعدتك ياابن الملوك الكرام(٣)» ثم أرشده الى مكان دابة غريبة تقف دائما عند شاطىء البحر وطلب منه أن يركبها ، فهى التى تحمله الى مكان كتاب النيل . وفعل ذلك سيف . ثم ظهرت له الملكة طامة ابنة الحكيمة عاقلة وشرحت له سبب ظهورها له فى هذا المكان فقالت : « لما ربيت أنا قلت لها (أى لأمها) أنظرى من أتزوج أنا من الرجال ، فضربت الرمل وخرجت الأشطال وقالت لى ان زوجك من بلاد اليمن وهو الملك

(١) جـ ١ ص ٦٧ .

(٢) جـ ١ ص ٦٩ . (٣) جـ ١ ص ٧٠ .

سيف بن ذى يزن ، فقلت لها : وهذا ايش يجمعنى عليه وهو فى بلاد بعيدة فقالت : انه يخطب بنت أفراح ويطلب منه كتاب النيل فى مهرها وحلوانها فيأتى فيأخذه من هذه البلاد وأنا أساعده على أخذه ويقاسى التعب الشديد وأنا الذى أقوم وانجده لأجل أن أزوجك اياه » (١) .

وهكذا دخل سيف بمساعدة طامة مدينة قيمر التى يحكمها الملك قمرونَ للاستيلاء على كتاب النيل . وبينما وقع سيف أسيرا داخل جب ، اذ بيد تمتد اليه وتقدم له السوط المطلسم وقد كانت تلك اليد هى يد عاقصة أخت سيف فى عالم الجن ، وقد جاءت اليه لتنقذه من ورطته ، وتخبره بأن الجنى الذى شاء ذات يوم أن يتزوج بشامة وقطع سيف يده بسيفه المطلسم قد فرض عليها أن تتزوج به ، وهى تود لو أن سيف خلصها منه . فرحل معها سيف بعد أن خلصته من الجب ، ليجهز على ذلك الجنى بسوطه . وفوجىء سيف بأن الجنى قد أسر أربعين صبية من مختلف البلاد والأقطار من بينهن ناهد بنت ملك الصين الأعلى ، التى أطلعتها النبوءة بأن سيف بن ذى يزن الحميرى سيخلصها ويتزوج بها ، فخلص سيف الأربعين صبية وأرجعهن الى بلادهن ، فيما عدا ناهد التى رفضت أن ترحل حتى تتزوج به . وهكذا أصبح أمام سيف أن يتزوج بكل من شامة بنت الملك أفراح وطامة بنت الحكيمة عاقلة ، وناهد بنت ملك الصين الأعلى .

وبعد أن قطع سيف يد الجنى الثانية وخلص البنات من أسرة ، اقترحت عليه عاقصة أن تطلعه على الأقاليم السبع المرصودة . فوافق سيف ، وحملته عاقصة على ظهرها وطارت به فى الفضاء وأنزلته فى مدينة يتشاجر فيها بعض الأخوة بسبب قلنسوة سحرية ، يختفى من يرتديها عن الانس والجن . واقترح سيف على الاخوة أن يفض النزاع فيما بينهم ، وهو يضمر فى نفسه أن يستحوذ على هذه القلنسوة السحرية التى تعينه فى مغامراته . فطلب من الأخوة أن يسيروا بعيدا عنه ، وأن يقذف هو بالقلنسوة ، فيحصل عليها أول من يدركها . ولما فعل الاخوة ذلك ، لبس سيف القلنسوة وبذلك اختفى عن أعينهم ثم رحل بعد ذلك الى بلاد الملك طالوت خان صاحب خاتم سحرى اذا أشار به الى عدو فان رأسه تنفصل عن جسده ، فاستطاع سيف أن يقتل عبود خان وأن يستولى على الخاتم السحرى وأن يحول الناس عن عبادة النار الى عبادة الله .

أخذت طامة تبحث عن الملك سيف ولكنها لم تجده ، فلما ضربت الرمل عرفت مكانه ولحقت به وسرقت منه القلنسوة وشاءت أن تحتفظ بها رهينة حتى يتزوج بها سيف . فرد عليها الملك سيف قائلا : « ياسيدتى خذيها بارك الله لك فيها ، ويا ليتكم ماعاوتتمونى ولا بالخير جاملتمونى ، وبعدما انصلحت أحوالى بدلتم المعروف وفعلتم بدله المتلوف ، وأنا ما أتوكل على القلنسوة لأن الذى يساعدنى هو الله فالق الحب والنوى »

ثم أخذ سيف كتاب النيل الذى كان قد استولى عليه من قبل ، ورحل الى بلاد الملك أفراح ، لكى يقدم اليه كتاب النيل حلوانا لزواجه من شامة ، ولكنه حينما وصل وجد أن الوزير سقرديون قد أرسل الى أخيه سقرديوس يطلب منه أن يحاول التأثير على الملك سيف أرعد لكى يتزوج بشامة ، وبذلك تتم الفرقة بين سيف

(١) جـ ١ ص ٧٣ .

وشامة . ورحب الملك سيف أرعد بهذا الاقتراح وأرسل رسلا تطلب شامة من أبيها أفراح الذى كان من أتباعه . ووصل سيف فى تلك اللحظة الحاسمة ، فاستطاع ، بمعونة سعدون الزنجى، أن يقضى على رجال سيف أرعد، ثم حدث بعد ذلك أن وفد الى الملك أفراح رجال سيف أرعد الذين كان قد أرسلهم فى صحبة قمرية ، لقد جاءوا اليه يشتكون من سطوة قمرية التى استبدت بالبلاد الى درجة أنها طرحت بابنها فى الفلاة لكى تتخلص منه . عندئذ طلب الملك أفراح من الملك سيف أن يرحل على رأس جيش ليخضع تلك المرأة التى استقلت بحكم بلاد الملك ذى يزن ، وطغت وتكبرت .

ودارت معركة حامية بين قمرية والملك سيف وهو يجهل أنها أمه . فلما شعرت قمرية بقوته حاولت أن تغريه بفتنتها وجمالها ، ولكن سيف لم يخضع لاغرائها وفجأة وقع بصر قمرية على العقد المعلق برقبة سيف . وهنا وقفت جامدة الحركة ، اذ لم يكن العقد سوى ذلك الذى علقته فى صدره حينما طرحت به فى الفلاة ، فلما تذكرت الشامة التى بخده ، وأيقنت أنها انما تصارع ابنها ، ولم تملك بعد ذلك سوى أن أباحت بسرها مستخدمة فى ذلك كل أساليبها الأنوثية حتى صفح عنها وسكن اليها، فى الوقت الذى أخذت تضمر له الخديعة ، فقد زعمت اليه بعد ذلك أن أباه قد ترك له كنزا خبأه له فى مكان بعيد وعليه أن يصطحبها حتى يعرف مكانه .. ولم يكذبها سيف ورحل معها حتى خلت به فى مكان ناء وأخذت تطعنه بسيفها وولت هاربة وهى تظن أنه مات متأثرا بجراحه ، وأخذ سيف يتضرع الى الله وقد أثخنته جراحه . « فلما أتم تضرعه وشكواه ، اذا بطائرين قد أقبلا من البرارى المقفرة ونزلا على تلك الشجرة ، وكل واحد على فرع منها ، ووجهه مناظر الى وجه الآخر . وأول ما تكلما قالا كلمة الاخلاص المنجية من القصاص ، لا اله الا الله وحده لا شريك له .. وكانت هذه الكلمة منهم سوية وبعدها قال أحدهم للآخر ، أرأيت يا أخى ما فعلت هذه الملعونة قمرية فى ولدها ، ضربته بالسلاح حتى أثخنته ، ونحن يا أخى حضرنا هنا ورأينا هذا الحال ، فما يكون عندك يا أخى من الأعمال، فقال الطير الثانى لا تعترض يا عبد السلام على ما حكم به الملك العلام ، واعلم أن هذه قمرية والدته لا كلام وأنها تفعل به سبع مكايد تمام ..» (١)

ولم يكن هذان الطائران سوى روحى شيخين طيبين جاءا لينقذا سيفا من موت محقق . وشفى الملك سيف واستعد للرحيل الى بلاده . وفى أثناء الطريق تقابل مع رجل طيب هو أخميم الطالب، ظهر له فى الوقت المناسب لكى يعينه على الحصول على أدوات سحرية تعينه فى تجواله فأخبره أنه يقوم على حراسة قبر النبى سام منذ زمن طويل ، وأن النبى سام يحتفظ له بداخل قبره بلوح سحرى وحسام . وعلى سيف أن يدخل داخل القبر فيحضر اللوح والحسام دون أن ينظر لحظة واحدة الى وجه النبى . ودخل سيف الى القبر وأحضر اللوح والحسام ، ولكنه لم يستطع أن يقاوم الرغبة الملحة فى رؤية وجه النبى سام . فلما فعل ذلك سمع صوتا يحذره وينذره بأنه سوف يصادف المتاعب جزاء مجاوزته المحظور . ولكن سيفا كان قد حصل على اللوح

(١) جـ٢ ص ١٥٤ .

السحرى . فلما وقع سيف فى المتاعب معك اللوح فظهر له خادمه عيروض فطلب منه أن يحمله الى بلاده .

ومرة أخرى تذللت الأم الى ابنها لكى يصفح عنها . بل انها قدمت له السيف ليقتلها ، ولكن سيفا أبى أن يقتلها وصفحَ عنها ، فلما علمت الأم أنه يحمل معه اللوح المسحور ،دبرت حيلة وخطفت اللوح وطلبت من خادمهعيروض أن يحمل سيفا ويلقى به فى بلاد الطودان ، كما يحمل شامة ويلقى بها فى بلاد الغيلان ، وهم عيروض بتنفيذ أوامر قمرية . فلما اعترض سيف على فعله قال له عيروض : « ما بقيت تكلمنى ولا كلمة واحدة ، فانك فرطت فى لوحى ولا عرفت بقيمتى وضيعتنى » (١) « انك أنت الظالم لنفسك ، حيث أنك أعطيت اللوح لأمك ،فقاسِ بنفسك طول همك ولا تطل معى كلاما » (٢) .

ومع ذلك فان سيفا الانسان الطيب لم يعدم ظهور القوى الخيرة له . فقد ظهرت له عاقصة لتنقذه من ضيقه وتجمع بينه وبين شامة فى بلاد الملك تاج حيث استطاع أن يهدى الناس الى الاسلام ، كما ظهر له برنوخ الساحر الذى تألم من فعل الأم مع ابنها ورحل اليها فى بلادها ليصيبها بداء وبيل يشل حركتها وتفكيرها . واستدعت قمرية عيروضا لتشتكى اليه من دائها فقالت : « ياعيروض ان الذى بى ما هو من الانس وأنا أظن أنه شغل الجان . فقال لها نعم ياستاه وانه فعل رجل ساحر يقال له برنوخ والذى أرسله لك ولدك الملك سيف لأنه أسلم على يديه لما رميته فى وادى النيران وجبال الدخان والفج العميق . فقالت له : وولدى سالم ؟ قال لها نعم . وكلما ترميه فى مهلك تخلصه أخته عاقصة ، فقالت له ، أمرتك أن تأتينى بالاثنين وهما عاقصة وبرنوخ حتى أقتلهما ، فقال لها ما أقدر لأن برنوخ يحرقنى وعاقصة لا يقدر أحد على قبضها » (٣)

واستمر سيف يحصل من القوى الخيرة على ما يعينه على كشف أسرار العالم المجهول . فقد حصل على حيوان سرطانى يعيد للمكفوف بصره ودخل بعد ذلك فى بلاد تعلق على أبوابها رءوس قتلى . فلما سأل عن ذلك علم أنها رءوس الذين عجزوا عن شفاء ابنة الملك من العمى . ووجدها سيف فرصة سانحة لا لكى يعيد للأميرة بصرها فحسب ، ولكن ليحول عالم هذا الملك كذلك الى دين الاسلام . ونجح سيف فى المهمتين . وفوجىء سيف بأن الأميرة التى رد اليها بصرها هى ناهد ابنة ملك الصين الأعلى ، وكان سيف مترددا فى الزواج منها . فدعت عليه بأن يرجع اليها بعد أن يقاسى الأهوال ورد هو عليها قائلا « وتكونى عمياء ودواؤك على يدى » (٤) وتحققت الدعوتان فرجع اليها سيف بعد أن قاسى الأهوال ، كما كان شفاؤها على يديه .

وفجأة ظهر عيروض وحمل الملك سيف والملكة ناهد ليحضرهما الى بلاد اليمن . وكان السبب فى ذلك هو برنوخ الساحر ، فقد أخذ يستدرج الملكة قمرية حتى سرق منها اللوح وطلب عيروض خادمه وأمره أن يحضر الملك «سيف» على التو .

وفوجئت قمرية برجوع سيف سالما . فأخذت تتضرع اليه طالبة العفو . وحذر برنوخ الساحر الملك سيف من تساهله معها . فرد عليه سيف

---

١ – السيرة ج ٣ ص ٢٠٢
٢ – ج ٤ ص ٢٣٧
٣ – ج ٤ ص ٢٥٣
٤ – ج ٤ ص ٢٦٢ .

قائلا : « يا أخي دعها تفعل ماتشاء فانها أمي ، وهي واقفة تتذلل بين يدى ، لعلها يا أخي تكون تابت » (١) . « وأما الملك سيف بن ذى يزن فانه أقام على كرسى المملكة ودخل عليه الخدم وخضعوا بين يديه كما يفعلون بالملوك . فقال الملك ارفعوا رءوسكم فان السجود لايكون الا للملك المعبود ، وأما أهل الايمان ودولةالاسلام فما عندهم تحية الا السلام » (٢) .

ومرة أخرى فرط سيف فى اللوح ،وسرقته الأم . وكانت قد عرفت منه قصة القلنسوة المسحورة ، فطلبت من عيروض خادم اللوح أن يحملها الى البلاد التى استولى فيها سيف على القلنسوة . وهناك أخبرت أصحاب القلنسوة بأن سارقها سوف يحضر لهم ، وعليهم أنيفعلوا به كل سوء . ونفذ عيروض ما أمر به . فحمل «سيف» فجأةليطرح به من عل، كما أمر ، فى بلاد أصحاب القلنسوة . وصرخ سيف فى عيروض فاجابه غاضبا : « ياملك أنت مالكعقل ولا تقبل نصيحة ناصح ما ، كأنك قطعة حجر يعثر فيك كل واحد . كيف تريد أن تبقى ملكا وسلطانا ويخدمك الانس والجان ، وتدور يدك على حكماء وسحراء وأرباب العلوم والأقلام وأنت على هذا الحساب ناقص العقل خرفان ، ويدخل عليك بدع امرأة كافرة بالعزيز الديان وتشتت شملك من مكان الى مكان ، وأنت ما أنت عاقل كأن عقلك ناقص مختلط بجنان . أتعبت قلب برنوخ الساحر وأقام أياما وليالى حتى خلص لوحى منها بالاحتيال وما ملكته فى يدك ، كأنك ماتعبت عليه حتى رميته من رقبتك وفرطت فيه » (٣)

وألقىعيروض الملك «سيف» منعل كماأمرته قمرية ، فهوى مثخنا بجراحه ، ثم ظهرت لهعاقصة لتخلصه من آلامه . واكتشف سيف فى تجواله مملكة من النساء ، كل امرأة فيها تملك ثوبا سحريا من الريش اذا ارتدته حلقت كالطائر فى الفضاء . فأعجبته منية النفوس من بين هؤلاء النسوة ، وتمكن من خطف ثوبها حتى لاتطير منه وبذلك تمكن من أسرها وتزوج بها .

وتمكنت عاقصة من سرقة اللوح من الأم وبذلك أمرت عيروض أن يرجع سيفا الى بلاده وعزمت قمرية فى هذه المرة أن تصنع لوحامزيفا وتعلقه فى صدر سيف بعد أن تسرق اللوح الأصلى ، ولما علمت عاقصة بذلك صممت أن تقتل هذه المرأة لامحالة . فظلت تبحث عنهاحتى اهتدت الى مكانها ، ثم حملتها الى عنان السماء وألقت بها فهوت بلا أنفاس ، وذهبت الى سيف لتخبره بذلك .

وعلى الرغم من تلك الفعال التى ارتكبتها الأم مع ابنها ، فقد غضب كل الغضب من عاقصة وقاطعها . ومع ذلك فان عاقصة لم تتخل عنه . وهبطت اليه وهو جالس على عرشه لتحييه فقال لها : « ياعاقصة أتيت تذكرينني بهمي وغمي بعدما قتلت أمي . فقالتله ، واللهانك ارتحت منها ومن فعلها وكيف لا أقتلها وهى فى كل وقت ترميك فى المهالك وهى كافرة بمالك الممالك . وحقمقام الخليل ابراهيم ان رجعت تذكرها ثانية ما بقيت أعود اليك » (٤)

(١) السيرة جـ٤ ص٢٦٥ .
(٢) السيرة جـ ٤ ص ٢٦٦ .
(٣) السيرة جـ٤ ص٢٧٦ .
(٤) السيرة جـ ٥ ص ٣٨٢ .

ومهما يكن من غضب الملك سيف وحزنه على وفاة أمه ، فقد ودع سيف فترة من العذاب النفسى ، كما تخلص كلية من سيطرة أمه عليه ، وبدأ يتهيأ للدخول فى مرحلة أخرى مليئة بالمغامرات التى حددت له من قبل لكى يصل الى هدف معين هو ذلك الذى أنبأه به الشيخ الطيب الذى عرفه بحقيقته المجهولة لديه .

وتبدأ هذه المرحلة بسعى سيف بحثا وراء منية النفوس . فقد حدث أن طامة حصلت على ثوب منية النفوس المصنوع من الريش والذى كان سيف يحتفظ به عنده حتى لاتستخدمه منية النفوس . ورأت منية النفوس ثوبها الريشى فى يد طامة ، فأخذت تتوسل اليها أن تعطيها اياه حتى تجربه أمامها ، ودفع الفضول طامة لأن ترى بعينها سحر هذا الثوب ، فأعطته لمنية النفوس التى ارتدته وطارت رويدا رويدا حتى اختفت عن الأعين .

وهكذا رحل سيف وراء منية النفوس ،بل رحل ليكشف أسرار العالم المجهول ويخرج أناسه من الظلمات الى النور . وفى الطريق قابله شخص قدم نفسه اليه بوصفه رسولا ينتظره منقبل الخضر عليه السلام . وقدم اليه الشيخ لوحا أقوى فى سحره من لوح عيروض ، لأن لوح عيروض لايمكنه من دخول بلاد منية النفوس . كما أن هذا اللوح لايحتفظ بهسيف فربما سرق منه ، وانما يحتفظ به خادم اللوح وهو الخيرقان .

وكان كل مكان يمر به الملك سيف يجده مرصودا بفعل السحر ، ويعيش فيه أناس يعبدون النار أو زحل .. فكان سيف مكلفا بمهمتين : مهمة فك الأرصاد ثم مهمة تحويل الناس من عبادة النار الى عبادة الواحد القهار ، ولم تكن القوى الخيرة تتردد فى مساعدة سيف فىسبيل تحقيق المهمتين .

وأخيرا وصل الملك سيف الى جزيرة الملكة منية النفوس ، وهى جزيرة لا يسكنها سوى النساء . وسبب ذلك أن والد منية النفوس كان قد اختلف مع أخيه بسبب عدم موافقة الأولعلى زواج ابنته منية النفوس من ابن عمها . فأراد الأخ أن ينتقم من أخيه بأن صنع سحرا استطاع عن طريقه أن يحمل كل الرجال من جزيرة أخيه ولا يبقى بها سوى الاناث . ورد عليه الأخ والد منية النفوس بسحر آخر استطاع عن طريقه أن يعزل نساء جزيرة أخيه عن الرجال . وهكذا أصبحت هناك جزيرة للنساء وأخرى للرجال ، وكل جزيرة وضعت حولها الأرصاد حتى لايتمكن أحد من دخولها .

ووعد الشيخ أبو النور سيفا بمساعدته على فك الأرصاد ، قال له : « ياملك سيف نحن نحن أجنحتنا ذكر الله ، والله يوصلنا بقدرته الى مانريد » [1] وبهذا استطاع الملك سيف أن يدخل جزيرة منية النفوس ، فلما سأل عن منية النفوس علم أنها أسيرة تقاسى الهوان ، فقدكان قومها قد غضبوا عليها وعاقبوها جزاء تركها الجزيرة وزواجها من الملك سيف فخلصهاالملك سيف ومعها ولدها مصر ، الذى كانت قدأنجبته فى بلاد الملك سيف . وترك سيف هذه البلاد بعد أن هدى أهلها الى الاسلام .

ثم دخل بلاد الكهين شعشعان . وعلم الشعشعان بقدوم الملك سيف . « فدخل فى بيت رصده ، واختلى وعزم وهمهم ودمدم ، واذا

(١) السيرة جـ٦ ص٥٢ .

بمارد أقبل عليه وقال نعم ياكهين الزمان . فقال له الشعشعان أيها المارد أمرتك أن تسير الى جيش المؤمنين وتأتينى بذلك الرجل المسمى سيف بن ذى يزن وأنا أعتقك . فقال له المارد سمعا وطاعة . ثم انه طلع من عنده وغاب ساعة وعاد اليه وهو يرتجف . وقال له : ياكهين الزمان ماقدرت أن أقرب منه لأنه لابس رقا من جلد غزال مطلسم بأسماء عظام ، واذا أراد جنى أن يدخل عليه مضمرا خيانته ، يحرق لوقته وساعته » (١) ودارت معركة كبيرة بين جيش الكهين الشعشان وسيف بن ذى يزن . ووجد سيف نفسه وحيدا فى الميدان فطلب العون من الاله الأكبر ، واذا برجاله يفدون اليه من كل مكان . فصاح الملك سيف : « أبشروا يا عصبة الاسلام ، فلقد أنجدنا الملك العلام ، ومن علينا بالاحسان وأغاثنا بالعساكر والفرسان . انهم عساكرى وأولادى ودساكرى وأجنادى وهؤلاء المقدمون الأربعة أنصارى ونوابى على بلادى ، وما أتوا الا لاجل السلام على ، وأنا نظرت فى أوائلهم فرأيت ولدى الملك دمر وأخاه نصرا وبرنوخ الساحر ، وأخميم الطالب والحكيمة عاقلة ومن خلفهم سعدون الزنجى وسابك الثلاث وميمون الهجام ودمنهور الوحش والملك أبوتاج والملك أفراح ، وأما القعقعة التى ترونها مثل الرعد فانها عاقصة على اليمين وعلى اليسار عيروض » (٢) .

وهكذا انتصر الملك سيف وكر راجعا الى بلاده مع أولاده ورجاله . وهناك فى بلاد اليمن طلب عيروض من الملك سيف أن يحقق له أمنيته وهى زواجه من عاقصة . ووافقت عاقصة على ذلك بشرط أن يحضر لها عيروض بعض كنوز النبى سليمان مهرا لها وهى تاج واكليل ومنطقة ورحل عيروض لتوه لكى يحضر هذه الأشياء بعد أن سلم لوحه للملك سيف . وطلب منه أن يمعك اللوح بعد مرور ستة أشهر على رحيله فاذا لم يحضر عيروض فعليه أن يمعكه للمرة الثانية . واذا لم يحضر فلا يمعكه المرة الثالثة وانما يكون ذلك علامة على أن عيروضا فى خطر ومرت الأشهر الستة ، وتذكر الملك سيف خادم لوحه ، فمعك اللوح المرة الأولى والثانية فلم يظهر عيروض ، فتأكد الملك سيف أنه فى خطر فقرر أن يرحل اليه ليبحث عنه بعد أن ترك ابنه دمر حاكما فى أرض اليمن .

ومر سيف ، فى طريقه الى الكنوز ،بمدينة العمالقة التى يحكمها الملك العملاق . وأعجب الملك بشجاعة سيف فعينه وزيرا له . ورضى الملك سيف بذلك حتى ينشر الاسلام فى هذه البلاد . ونجح فى ذلك وازداد العملاق حبا له وأراد أن يزوجه ابنته العملاقة . ولكن سيف تمكن من الهروب ورحل الى جزيرة يحكمها الملك الطيلقان . وكان الملك الطيلقان قد فزع مع شعبه الى الجبال وترك بلاده التى يسكنها تنين مهول وأبدى الملك سيف استعداده لكى يخلصه من التنين . فلما تمكن من ذلك آمن الملك الطيلقان برسالته وأسلم وشعبه على يديه .

ثم رحل الملك سيف الى مكان يسكنه جنى يسمى البرق اللامع . وكان هذا الجنى قد أسر جماعة من الانس يقومون بخدمته من بينهم أنيسة بنت أيراه بن غليون ، هى التى دلته على السيف المرصود ، سيف آصف بن برخيا وزير

---

(١) السيرة جـ ٦ ص ٧٦ .

(٢) السيرة جـ ٧ ص ٨٣ .

النبى سليمان وبدون هذا السيف لايمكن القضاء على البرق اللامع ، كما كان لهذا السيف وظيفة أخرى وهى التمييز بين المؤمن ايمانا حقا والمنافق الذى يدعى الايمان .

وظهرت عاقصة للملك سيف وأخبرته بأن الملك سيف أرعد يستعد للهجـوم على بلاده ، ولكن الملك سيف عزم على أن يخلص عيروضا من المآزق التى وقع فيها بخاصة بعد أن ظهـر لهفى رؤياه يعتب عليه تركه معذبا فى بلاد الكنوز وجاء الجن ليحملوا سيفا الى بلاد الكنـوز . ووقف سيف أمام بستان يؤدى الى الكنـوز يحرسه الجن ولا يفتح الا لحامل سيف آصف ابن برخيا ، فلما دخل سيف وصل الى «عفريت كبير الجثة بين يديه عفاريت على صفة العسكر ولكنهم مثل الجراد المنتشر ، وهو جبار من أقوى الجبابرة الأشرار ، ورأسه كالقلعة العالية وفمه مثل باب الوكالة بأسنان كدائرة الطاحون واسمه الملك كيهوب .. وهو الذى قبض على عيروض وحبسه عنده وتولى عذابه » (١) « وبينما هم يضربونه وهو يستغيث واذا به التفت فرأى أستاذه الملك سيف خلفه . . وما قـدر أن يسكت بل صاح بأعلى صوته : الحقنى ياسـيداه » (٢) «فلما رأى كيهوب هذا الحـال أمر الجان أن يكشفوا له الخبر ــ فلما رأى سيف الجـان قادمين نحوه ، حط يده على قبضة سيف آصف ابن برخيا وجرده وهزه فى وجوههم ، فخرجت منه بوارق نيران وقصدت أرهاط الجان .. فلما عاين الجـان ذلك ولوا هاربين .. فلما سـمع كيهوب هذا الكلام من الخدام تعجب وأخـذه الهيام وقام من ساعته على الأقدام وسار حتى

١ ــ السيرة ج ٩ ص ٢٦٨
٢ ــ السيرة ج ٩ ص ٢٨٧

وصل الى عند الملك سيف ، فلما رآه سيف أراد أن يجرد الحسام فى وجهه فصاح كيهوب وقال له اصبر ياملك الزمان لاتجرد هذا الحسام بحق الملك العلام ، حتى تخبرنى من أنت ومن أين أقبلت والى أين سائر وما مرادك منا ؟ فقال الملك سيف ، أما أنا فالملك سيف بن ذى يزن التبعى اليمانى ، وأمامجيئى فمن مدينة حمراء اليمن وأما ما أريد ، فأنا طالب ثلاث حاجات الأولى أريد الفرجة على الكنوز والثانية آخذ بدلة الست بلقيس ، والثالثة خلاص خادمى عيروض » (١). وكانت بلقيس قد أوصت بأن تكون البدلة للملك اليمانى بعد أن تفتح له الكنوز بابها فور نطقه بحسبه ونسبه .

وحصل الملك سيف على مبتغاه واسـتولى على الكنوز وفيها بدلة بلقيس . وظهـرت له عاقصة فجأة لترى البدلة . ولكن الملك سيف رفض أن يطلعها عليها لئلا تستولى عليهـا ثم ترفض الزواج من عيروض . وبعد ذلك خلص الملك سيف عيروضـا من الأسر ورجع الجميع الى صحراء اليمن فى الوقت الذى كان سـيف أرعد قد ألحق الهزيمة بجيش تدمر ، فى أثناء غيابه وأخيه مصر .

« وكان السبب فى غياب أولاد الملك سيف ابن ذى يزن فى ليلة واحدة ، هو أن الله تعالى خلق من جملة خلقه كهين عنيد كافر ، يعـلم السحر والكهانة ... يفك الطلاسم ويسـتنطق أشكال الرمل وغيره . ومن جملة أفعـاله أنه سأل جميع الجان الموكلين بالكنوز عن الذخائر، فأعجبته ذخيرة واحـدة وهى فى كنـز كوش ابن كنعان وهى خرزة ذات أوجه سبعة ، وكل

(١) السيرة ج ٩ ٢٨٨ .

وجه عليه اسم خادمه . وهذه الخرزة لها سلسلة من الذهب الأحمر وهى صناعة الحكماء والكهان اليونانيين ... وكل من يملكها تطيعه الخدام ويطيعه أهل الأقاليم . ومازال الحكام يتوارثونها الى أن وصلت الى هذا الكنز ، والذى وصلها فيه كوش بن كنعان صاحبه .... فلما سمع بهرام المجوس ذلك الكلام من الخدام، صاح بالنار ذات الشرار ثم صاح على جماعةمن الجان ، وقال لهم يا ويلكم ائتونى بهذه الخرزة التى فى كنز كوش بن كنعان فقالوا له مالنا الى ذلك سبيل ولا نقدر نعبر الكنز واننا نخبرك عن ذلك ... انك لن تصل الى هذه الخرزة الا اذا كان معك غلام لهشامتان ويكون من أبناء الملوك واسمه مصر . » (١)

وهكذا دبر بهرام خطة لاختطاف دمر خطأ ثم خطف مصر . واستدرج بهرام مصر حتى سرق له الخرزة واستولى عليها ولكنها رجعت الى مصر بعد ذلك .

ولما سمع دمر بذلك ، دب الحقد فى قلبه وخطف الخرزة من أخيه ومعكها ، « فحضر له أكبر خدامها وقال له لبيك يا ملك الزمان فقال له من تكون فقال له يا ملك أنا شيهوب الشاهق ولى اخوة ستة وهم غيهوب الصاعق وكيهوب العاصف وبلدة وبردة وأبونا الملك عرفجة وأمنا الملكة عوسجة ، ونحن السبعة نخدم السبعة الأوجه ، وأبى وأمى يخدمان الرأسين وهما الحافظان على كنز كوش ابن كنعان . » (٣) وطلب دمر منه أن يرحل به الى دمشق الشام ففعل .

وهناك أحب دمر الجابية،ابنة الملكجبرون، وطلب يدها من أبيها . ولكن الوالد كلفهبتبعات عسيرة ، يتحتم عليه تحقيقها اذا شاء أن يتزوج بالجابية ، لقد كلفه بأن يجرى الماء حول الشام ويكون قدر سبعة أنهر ، كما عليه أن يبنى لها قصرا منيفا فى مدة وجيزة . ولميكن من العسير على دمر أن يحقق ذلك عن طريق الخرزة السحرية . وتعجب الملك من ذلك ، وحاول أن يعرف من ابنته عن الوسيلة السحرية التى يمتلكها زوجها . وكان دمر قد أخبر الجابية عن قصة الخرزة وكيف أنه سرقها من أخيه . فاطلعت أباها على سر الخرزة ورفضت أنتعطيها له وانما سرقتها لنفسها ، ولما لم تعد الجابية تأمن جانب دمر بعد أن سمعت قصة غدره بأخيه ، أمرت شيهوب خادم الخرزة أن يأخذ دمر ويطرح به فى مكان مهجور ، ففعل . وأما الجابية فقد لجأت الى بيت المقدس خوفا من سطوة أبيها حيث ذاع صيتها فىمعرفة الغيبيات وجاء مصر اليها ليسأل عن خرزته المفقودة فسلمتها له بعد أن أحبته وأرادت أن تتزوجه ، فوافق مصر ووعدها أن يتزوج بها فور طلاقها من أخيه .

ثم اجتمعت الأخوة ومن بعدهم الملك سيف ابن ذى يزن فى حمراء اليمن بعد أن دمرهاالملك سيف أرعد فى أثناء غيابهم . واستعد الملك سيف لأن يعيد بناء حمراء اليمن ولكن الحكماء أخبروه بأن هذا العمل سيتمه أبناؤه ، أما هو فمقدر له أن يعمر بلادا أخرى سيطلق عليها اسم « مصر » نسبة الى ولده مصر . ورحل الملك سيف الى تلك البلاد مع نفر من رجاله وبعض أولاده وأمر « كلا منهم يبنى له مدينة ويسكن بها هو ورجاله وكذلك الجيزة والروضة وابنه

---

١ ـ السيرة جـ ١١ ص ١١ .
٢ ـ جـ ١١ ص ٤٦ .

بولاق وتكرور وعاقلة وأخميم » (١) ثم قال الملك سيف : « يا اخوانى مرادى أن أقول لكم وأنتم تسمعون اعلموا أننا عمرنا البلاد وأهلكنا الأعادى والحساد وأن البلاد من غير مياه يكون أمرها صعبا شديدا وعطشا أكيدا ، وأريد منكم يا اخوانى المعاونة على سلوك المياه والغدران فى تلك الوديان ، لأن الماء للبلاد شيء لابد منه ولا لهم غنى عنه . » (٢) فلما سمعت الحكيمة عاقلة ذلك الكلام تقدمت هى من دون الرجال الكرام وقالت له اعلم أيها الملك السعيد والمولى الرشيد أن هذا الوادى من قديم الزمان وسالف العصر والأوان كان فيه جاريا بحر النيل وكان جاريا بهذه الوديان ومازال على هذا الأمر والشأن الى أيام الطوفان ، فالأرض قدكسيت بالتراب وانعقدت فيها الرمال والهضاب وأن النيل ارتصد وبطل صلاحه وفسد . وسبب ذلك أن الله كان خلق حكيمين أحدهما يسمى الحكيم جابرصا فى المشرق وجابلقا فى المغرب. وكانت مدينة جابلقا بها نهر والثانية لم يكن بها ماء فاستخدم الثانى سحره حتى سحب النهر من بلاد الأول اليه ، ومازالا يسرقان النهر حتى كتب جابلقا كتاب النيل الذى لا يمكن لأحد أن يسرق النيل الا بواسطته . » (٣) عندئذ تذكر الملك سيف كتاب النيل الذى كان قد استولى عليه من مدينة قمرون وقدمه للملك أفراح حلوانا لزواجه من ابنته شامة . وأخبرته عاقلة أن الكتاب الآن يقع فى حوزة الملك سيف أرعد ووعدته بأنها ستسرقه منه خلسة . كما أخبرته بأنه محتاج الى سبعة أشياء ان كان عازما على أن يجرى ماء النيل من قلعة الجبل

(١) السيرة : جـ١٢ ص١٥٣ .
(٢) المرجع السابق نفس الصفحة .
(٣) السيرة جـ١٣ ص ١٥٣ .

وهى : سيف آصف بن برخيا ليرد به أعوان الجان والكهان ، وكتاب تاريخ النيل فان البحر لا يمشى الا تبعا له ، والجواد المسمى ببرق البروق الياقوتى لأن أى جواد آخر لا يستطيع أن يصمد أمام صريخ الجان . وخرزة كوش ابن كنعان فان خدمها ومالها من الأتباع ينفعون فى جداول البحر وكذلك لوح الخليجان والرهق الأسود . ثم قالت له فى النهاية: «وأيضا يا ملك تحتاج الى الحكماء والرجال والجنود والأبطال وتفرغ قلبك لهذه الأشغال حتى تجرى ماء النيل . » (٤) ثم سألها الملك سيف عن الرهق الأسود فقالت له : « يا ملك هو مسجون فى أشد الحصار ولو كان مطلوقا ما كان بقى على وجه الأرض لا جان ولا ديار .. ولا تقل يا ملك ان سيف آصف يقطع فيه .. » (٥) والرهق الأسود من الجن الذين عصوا النبى سليمان فحبسه فى القصر الحديدى داخل عمود مجوف من الرخام .

عندئذ نزح الملك سيف اليه وطلب منه أن يصبح من رجاله ان هو خلصه من الأسر . فقال الرهق الأسود فى نفسه « هذا رجل مجنون وأنا عمرى ما عاهدت أحدا أبدا الا وأخونه . وأنا ما طاوعت سليمان بن داود ولا آصف بن برخيا فكيف أطيع هذا الرجل الانسى وأكون له خادما أو تابعا . ولكن أنا أوعده أنى أطيعه وبعدما يخلصنى أقتله وأخرج الى دار الدنيا وكل ما رأيته أقتله وأجعل الدنيا خالية من الانس والجان وأقيم فى الدنيا وحدى . » (٦)

(٤) السيرة جـ١٣ ص١٥٤ .
(٣) السيرة جـ١٣ ص١٥٥ .
(٦) جـ ١٣ ص ١٦١ .

ولكن حينما خلص الرهق الأسود من الأسر وأبصر عاقصة التى كانت بصحبة الملك سيف وقع فى حبها وطلب من الملك سيف أن يتزوج بها . وانتهز الملك سيف هذه الفرصة ،ووعده أن يحقق له رغبته بعد أن يساعده فى جريان ماء النيل • ووافق الرهق الاسود فشمر عن ساعديه وحطم له الصخور والشلالات والجنادل ، كما أحضر له الأشياء السحرية التى ذكرتها له عاقصة وبهذا جرى النيل من المنبع الى المصب وروى أرض مصر الكريمة .

فلما حان موعد تحقيق رغبة الرهق الأسود بزواجه من عاقصة . استدرجه الملك سيف الى جب تحت الأرض على زعم أنه يقيم له الاحتفالات وهناك استطاع سيف أن يحرقه بالنار .

وخلا بعد ذلك الجو لعيروض فطلب الزواج بعاقصة • ورفضت عاقصة رغم اصرار الملك سيف على أن تتزوج به . فلما هددها الملك سيف عزمت على أن ترجع الى بلادها أى بلاد الجن . وفى الطريق قابلها قوم الرهق الأسود وهم فى طريقهم اليه ليحضروا حفل زواجه من عاقصة . وأخبرتهم بأن الرهق الأسود قد حرق بالنار • ولما خشيت سطوتهم أخذت تستميل كبيرهم عبود النار ليتزوج بها . ففرح بذلك وطار معها الى أبيها . وشاء الأب أن يتخلص منه فأخبره بأن أمر زواجها بيد أخيها الملك سيف لا بيده . فانتظر عبود النار حتى طارت عاقصة وأحضرت الملك سيف عند أبيها .وهناك طلب الملك سيف من عبود النار أن يعلن اسلامه . فلما رفض أشهر الملك سيف فى وجهه سيف آصف وقضى عليه . ثم طلب الملك سيف من عاقصة أن ترجع به الى حمراء اليمن ولكنها أصرت على أن تطلعه قبل ذلك على جبال القمر ومنابع النيل وقبة البللور .

وعندما وصلت به الى قبة البللور أخبرته بأنها ستنتظره خارج القبة وعليه أن يتفرج عليها وحده . وذهل سيف لروعة القبة . ولمح سريرا بداخلها فاضطجع عليه ليستريح ، ولكنه راح فى نوم عميق . ثم أفاق على شىء يحمله فى الهواء . فظن أنه عاقصة ولكنه كان ماردا خطف منه السيف وأنزله بين يدى «عجوز قهرمانة كبير الرأس ممطوطة البوز وقالت له : اعلم ياملك أنى من بنات ملوك الجان ، وكنت جميلة فى صباى ثم ابتليت بداء الغيلان » (١) وطلبت من الملك سيف أن يتزوج بها فأخذ يلاطفها حتى استرد سيفه ثم هم وقتلها هى والمارد . ووجد سيف بعد ذلك حصانا سحريا قدم له الطعام والشراب وحمله الى قصر منيف . وهناك وجد نفسه أمام امرأة ظنها منية النفوس . ولكنها أخبرته بأنها ليست منية النفوس وانما هى نفيسة الدر بنت الملك بحر شيرشاه . وكانت بلاد الملك تعانى من قلة المياه . فأجرى سيف له المياه فسعد به الملك وقربه اليه . فاغتاظ وزير الملك ووشى بالملك سيف عنده فحبسه الملك بعد أن جرده من سيفه ومن ذخائره . فلما شاء الملك أن يخرج السيف من غمده عجز ، فاستدعى وزيره وطلب منه أن يأخذ السيف خارج المدينة ويعالجه من غمده . فلما فعل الوزير ذلك هبطت عليه عاقصة وخطفت منه السيف وقتلته به ثم حملت جثة الوزير وطرحت بها أمام الملك بحر شيرشاه وأمرته أن يطلق سراح الملك سيف وأن

(١) السيرة جـ١٤ ص١٩٦ •

يرد اليه ذخائره والا لقى حتفه مثل وزيره . وبهذا أطلق سراح الملك سيف وجدد الملك سيف رجاءه وهو أن تقبل عاقصة الزواج من عيروض . وفى هذه المرة وافقت عاقصة على الزواج بشرط أن يتحرر عيروض من كونه خادما للوح وأن يتوج ويصبح ملكا . واستطاع الملك سيف أن يحقق هذين الشرطين . فتزوجت عاقصة عيروضا وولدت منه أولادا أصبح كبيرهم وهو عفاشة الجان خادما للوح خلفا لأبيه .

ولم ينس الملك سيف هو وأولاده أن ينتقموا من سيف أرعد . فدارت الحرب بينهم قتل على اثرها الملك سيف أرعد . وعند ذلك نزح سيف مع أولاده الى مدينة الدور ، مدينة الملك سيف أرعد . وهناك طلب الملك سيف الحكيمين سقرديوس وسقرديون ، فلم يجدهما . وعلم عن طريق السحر أنهما قد هربا الى مدينة الصوان ووادى الحجر عند حكيم كهين يسمى الجلنار وله بنت تسمى الأفعى .

وقبل أن يرحل الملك سيف اليهما ، شاء أن يتفرج على قصر الملك سيف أرعد ، فلما دخل الحمام « وجد بداخله شيئا موضوعا مثل الثوب على الأرض وهو من الحرير الابريسم ولكنه يتقلب ذات اليمين وذات اليسار فتعجب الملك سيف من ذلك وتقدم اليه ولم يعلم ماكتب له فى علم الغيب وما هو قادم عليه . واذا به أمسك الثوب فخرج منه دخان من تحت القبة حتى صار ماردا وقبض على الملك سيف من حزامه بيده وضرب القبة بيده اليمين فخرقها وصعد منها وهو حامل الملك سيف الى أن وصل الى أعلى . » (١)

(١) السيرة جـ١٧ ص٧٧ .

وافتقد دمر أباه فسأل عنه أحد الحكماء فقال له : « اعلم أن أباك سار الى مدينة النحاس وقد صلب على دولاب مصنوع له من الرصاص ، فكلما دار الهواء لفة وكلما نزل الندى هفه وهو الآن فى أليم العذاب وأشد الذل والعقاب ، وقد أخبرتك به وبسببه . »(٢) فلما سأل دمر عن سبب ذلك ، حكى له حكاية السحار المكار رومان الأزرق الذى أشار على ولده السقراق بخطف الملك سيف الذى أذل الأصنام وأبطل عبادة زحل فخطفه وصلبه على هذا الدولاب المذكور .

واستعان دمر بطبيعة الحال بعفاشة الجان الذى أسرع وخلص الملك سيف . ثم قال عفاشة الجان للملك سيف : « انى سمعت ياملك أنك عملت لوالدى عيروض فرحا عظيما .. لما تزوج بأمى عاقصة وانى أتمنى أن تعمل لى فرحا مثله .. لأنى أريد أن أخطب دنهشة بنت الملك ديهشور صاحب قلعة من قلل قاف لأنى مغرم بحبها . » (٣)

وكأن عفاشة الجان قد خشى أن يلهيه الزواج عن اتمام مهمته بوصفه خادما للملك سيف ، كما أنه خشى أن يكون الملك سيف قد تعب من التجوال ـــ بخاصة بعد أن فرغ من عملية جريان ماء النيل ، ولهذا فقد عزم ، بينه وبين نفسه ، أن يدفعه الى تحرير الأقاليم السبع التى تقع بين بلاد الملك سيف أرعد وبين قلل قاف ، من عبادة الأصنام . فلما قبض مسابق العيار ، أحد خدام سيف على الحكيمين سقرديوس وسقرديون وأوصلهما عند الملك سيف ، عمل عفاشة الجان على تهريبها الى أول

(٢) السيرة جـ١٧ ص٧٨ .
(٣) السيرة جـ١٧ ص٨٦ .

اقليم وهو وادى السبروت . فرحل الملك سيف اليهما ونشر دين الاسلام فى هذا الوادى . ولما بحث عن الحكيمين وجدهما قد هربا مرة أخرى الى مدينة الياقوت . وهكذا أخذ يرحل الملك سيف وراءهما من اقليم لآخر ، وعفاشة يساعده من ناحية على ابطال أرصاد هذه الأقاليم ومن ناحية أخرى يعمل على تهريب الحكيمين الى بلاد أخرى تعيش فى جهل عبادة زحل والأوثان. وأخيرا عرف الملك سيف أن عفاشة يقف وراء سر هروب الحكيمين دائما أبدا . فقال له :«لأى شىء كلما نقبض على أعدائنا تطلقهم أنت من قبضتنا . فقال له عفاشة ياملك الاسلام هذا فيه فوائد كثيرة لأنك فتحت سبعة أودية وصاروا على دين الاسلام بعدما كانوا من الكفرة اللئام وأنا دائما ماسك ذلك الخلاف حتى تفتح البلاد بالاسلام الى حد سابع قلة من قلل قاف وتخطب لى دنهشلة من أبيها حتى تزوجنى بها وتعمل لى فرحا مثل فرح أبى عيروض . »(١)

وبهذا فرغ الملك سيف من مهمته وهى اخضاع ممالك الانس والجن الى دين الاسلام، كما استطاع أن يكسر شوكة سيف أرعد ويخضع بلاده ــ أكبر معاقل عبادة الأوثان ــ وتصبح تحت سلطانه . كما استطاع أن يجرى ماء النيل الذى كان يستمتع به الملك سيف أرعد وحده وبالمثل تلك الممالك الواقعة حول منبعه ،فيجعله يسير فى الصحراء القفر فيروى أرض مصر فتخضر وتزدهر .

ولما فرغ الملك سيف من كل ذلك ، استقر مع أولاده واتفقوا على حكم تلك البلاد فجعل دمر يحكم فى الشام كما جعل مصر يحكم فى مصر وحكم هو فى حمراء اليمن .

***

ولعلنا ندرك ، بعد أن عرضنا لسيرة سيف ابن ذى يزن ، كيف أن هذه السيرة ، على خلاف السير الشعبية الأخرى تسبح فى جو من الخيال الصرف . فما من حادثة فى السيرة نسجت عناصرها من حوادث تاريخية . ومن ثم فنحن نتساءل : هل تعد سيرة الملك سيف سيرة خرافية ، أى أنها تنتمى الى الأدب الخرافى بصفة عامة ، أم أنها تعد صدى ، على الرغم من جوها الأسطورى الصرف ، لحوادث واقعية عاشها الشعب العربى فى حقبة من تاريخه ؟ ولعل هذا يدفعنا الى البحث عن الدافع الأول وراء رواية السيرة ، والى الكشف عن الدور التاريخى الذى لعبته الشخصيات التاريخية فيها وعلاقة بعضها ببعض .

ان الهدف الأساسى الذى كان يسعى اليه الملك سيف فى السيرة هو القضاء على الكفر فى عالم الجن وعالم الانس ، حتى اذا ما أتى زمن محمد عليه السلام ، أصبحت العوالم كلها ممهدة لنشر دعوته . والحق أن الملك سيف فى السيرة قد نشر الاسلام بالفعل ، أى أنه قام بدور الرسول عليه السلام . حقا انه لم يقم بنشر تعاليم الدين الاسلامى كما هى مفصلة فى القرآن والسنة ، ولكنه اهتم بنشره من الناحية الكلية لا الجزئية . وربما كانت السيرة محقة فى عدم الدخول فى تفصيلات الدين الاسلامى لأن حوادثها تجرى فى عهد ما قبل الاسلام أى قبل ظهور محمد ونزول القرآن عليه . وأما الهدف الثانى الذى كان يسعى اليه الملك سيف بعد أن انتصر على الكفار فى عالم الانس والجن ، فهو

(١) السيرة جـ٢٠ ص٢٧٤ .

تعمير البلاد : تعمير اليمن بعد أن خربها سيف أرعد وتعمير الشام وتزويدها بالمياه ثم العمل على جريان ماء النيل من منابعه فى افريقية حتى يصب فى البحر مارا ببلاد مصر . وبهذا تحققت معجزات البطل سيف بن ذى يزن وبهذا تنتهى السيرة .

هذا هو الشكل العام للسيرة أو الاطار الذى تتوزع بداخله حوادثها . ونحاول الآن أن نربط بين السيرة فى اطارها العام ، وبين ما يحكيه التاريخ عن شخصية الملك سيف ابن ذى يزن والدور الذى لعبته بلاده — أى بلاد اليمن — مع بلاد الحبشة التى يمثلها فى السيرة الملك سيف أرعد .

ينتسب الملك سيف الى بنى حمير ، أشهر شعب حكم اليمن بعد سبأ . « ولقد أطلق العرب كلمة حمير على كل عصور اليمن لأن عصر بنى حمير كان أقرب العصور اليهم ، ومن ثم كانوا أعرق شعوب الجنوب اليهم . » (١)

ومن المعروف أن الحضارة العربية القديمة تمركزت فى الجنوب ، وأن اليمن لذلك كانت مطمع الدول الكبيرة فى ذلك الوقت وهى بلاد الفرس والرومان والحبشة بقصد الاستفادة من موقعها الاستراتيجى واتخاذهامهادا لنشرالدينين السماويين وهما اليهودية والمسيحية .أما الدولة التى لعبت فى تاريخ اليمن الدور الأكبر فهى الحبشة ، وقد بدأت أولى غزواتها على اليمن فيما يقول المؤرخون فى القرن الأول قبل الميلاد.

وكانت اليمن ملجأ لليهود الذين فروا من اضطهاد الدولة الرومانية . وحيث أن الفرس كانوا أعداء للروم ، فقد ناصر الفرس اليهود الهاربين الى اليمن من ظلم الدولة الرومانية . وكان الفرس من ناحية أخرى أصحاب دعاية قوية فى حمير ، ولهذا فقد وجد اليهود فى بلاد اليمن مهادا لنشر دينهم حتى يقال ان بعض ملوك حمير قد تهود وعلى رأسهم تبان أسعد أباكرب. ولما انتشر الدين اليهودى فى بلاد اليمن ، ولما ناصر الفرس اليهود بها ، فقد أصبح الفرس يثقون فى قوة مناوئة للدولة الرومانية صاحبة الدين المسيحى وحليفتها الكبرى وهى الحبشة وبهذا برز النزاع بين الفرس والروم من جهة وبين اليهود والنصارى من جهة أخرى ، وكانت اليمن مسرحا لهذا النزاع . فلما انتشرت اليهودية فى بلاد اليمن أسرع الأحباش يناصرهم الرومانيون ، فى القضاء على اليهودية وتدعيم المسيحية بها . كما أسرع الفرس بدورهم فى خلق شعور النفور فى نفوس اليمنيين من الأحباش المستعمرين .

على أن نفوذ الحبشة والرومان تغلب فى النهاية .وهاجر الى اليمن كثير من الأحباش شاءوا وعلى رأسهم أبرهه الحبشى ، فى القرن السادس الهجرى أن يستقلوا عن الحبشة . ولكن الحبشة كانت تصر بين الحين والآخر على اخضاعهم لنفوذها . وبهذا أصبحت العلاقة بين الحبشة واليمن علاقة سياسية فحسب بعد أن كانت دينية فى بداية أمرها .

ولما رأت حمير أن «ملك الحبشة قد دام عليهم وتوارثوه فيهم ، اجتمع ساداتهم الى سيف بن ذى يزن وهو من أولاد ذى نواس الذى غلب الحبشة على اليمن فى أيام ملكه بذلوا جهدهم أن

(١) عبد المجيد عابدين : بين الحبشة والعرب • ص ٤ دار الفكر العربى)

يجمعوا له نفقة تقيمه ليسير الى بعض الملوك فيستنجده ففعل ذلك ، وسار حتى وافى القسطنطينية الى قيصر ملك الروم فاستنجده فقال له قيصر : ان الجيش على ديني وما كنت لأعينك عليهم وأمر له بعشرة آلاف درهم . فأبى أن يقبلها وقال : اذا لم تنصرني فلا حاجة لي الى مالك . وانصرف الى كسرى واستنجده فقال له كسرى : بعدت بلادك عن بلادنا مع قلة خيرها ،انما فيها الشاء والبعير ومالا حاجة لي فيه . فقال له سيف : لا تزهدن أيها الملك فى بلادى فانها فرضة العرب . وأرض التبابعة الذين ملكوا أقطار أقاليم الأرض ، ودان لهم أهل الشرق والغرب . قال كسرى : ما كنت لأغرر بجندى فيما لا ينفعنى . وأمر له بعشرة آلاف درهم . فلما انتهى الى باب القصر نثرها فى الناس حتى أتى عليها ، فبلغ ذلك كسرى فغضب وقال له : ما الذى حملك على استخفافك بصلتى حتى نثرتها فى الناس ؟ قال : ما أصنع بالمال وتراب أرضى ذهب وفضة . ثم خنقته العبرة . فرق له كسرى ووعده بالانتصار له . فأشار عليه بعض وزرائه فقال : ان فى سجونك بشرا كثيرا ممن استوجب القتل ، فمر باطلاقهم وقوهم بالمال والكراع والسلاح ، ووجههم مع هذا العربى فان ظفروا كان ذلك زيادة فى ملكك ، وان قتلوا كان ذلك جزاء عن جرائمهم. فأعجب كسرى هذا الرأى وعمل به وقدم عليهم وهرز بن كامخان ، وكان من فرسان العجم وأهل البيوتات ، وقد أناف على المائة من السنين ، وكانت عدتهم ثلاثة آلاف وستمائة رجل ، فركبوا البحر فى سبع سفن ، وأرسل سيف الى اليمن ومخاليفها فأتوه من أقاصى اليمن وأدانيها حتى صاروا فى عشرين ألفا .

وتجهز اليهم مسروق (١) ، فلما التقيا قال وهرز لسيف : أرنى ملكهم . فأراه اياه وهو على فيل وعلى رأسه التاج وفيه ياقوتة حمراء مدلاة على جبينه ، فلبث ساعة ثم تحول الى فرس ثم تحول الى بغلة . فقال وهرز : ذل الأسود وباد ملكه ، وأنا أرميه فتأمل الرمية ، فان رأيت أصحابه تصدعوا عنه وحاصوا يمينا وشمالا فاعلم أنى قتلته . وان لم يتحركوا من منازلهم فلم أصنع شيئا ورماه ، ففلق السهم الياقوتة نصفين وخرج من مؤخر رأس مسروق، واضطربت الحبشة وماجوا ، وحمل عليهم ومن معه والعرب فولوا منهزمين ، ودخلوا صنعاء وقتلوا كل أسود يوجد فى اليمن . وكتب دهرز الى كسرى بالفتح فكتب اليه كسرى أن يسأل عن سيف بن ذى يزن ، فان كان من أبناء الملوك فأقره على ملكه وانصرف عنه ، وان لم يكن من أبنائهم فاضرب عنقه وأقم فى الأرض متوليا لهم . قال : فسلم وهرز اليه ملكه وخلف من كان معه من العجم بصنعاء وانصرف الى كسرى . وملك سيف اليمن لكسرى وتداولتها الولاة بعده من قبل كسرى.وكان ملك الحبشة على اليمن اثنتين وسبعين سنة ثم انتزع عنهم . » (٢) فلما انصرف وهرز الى كسرى، وملك سيف على اليمن عدا على الحبشة فجعل

---

(١) مسروق هو ابن أبرهة الأشرم • ويحكى الطبرى ان ذا يزن كان أحد أشراف اليمن فى عهد أبرهة الأشرم • وكان قد ولد له غلام من ريحانة ابنة ذى جدن سماه معد يكرب • وكانت ريحانة ذات جمال فانتزعها الأشرم منه وتزوجها وولدت له غلاما سماه مسروقا • ونشأ معد يكرب بن ذى يزن مع أمه ريحانة فى حجر أبرهة • وعرف معد يكرب بعد وقت أنه ليس ابنا لأبرهة الذى كان قد توفى هو وابنه يكوم وكان هذا سببا فى خروجه من بلاده ليستنجد بملك الروم والفرس كما ذكرنا • (الطبرى ج ١ ص ٩٥٢) •

(٢) النويرى : نهاية الأرب ط وزارة الثقافة والارشاد ج ١٥ ص ٣٠٩ ـ ٣١١ •

يقتلها ويبقر النساء عما فى بطونهـا ، حتى اذا أفناها الا بقايا ذليلة قليلة اتخذهم خولا ،واتخذ منهم جمازين يسعون بين يديه بحرابهم ، فمكث بذلك وقتا قصيرا » « ثم انه خرج يوما والحبشة تسعى بين يديه بحرابهم حتى اذا كان فى وسط منهم ، وجئوه بالحراب حتى قتلوه . ووثب منهم رجل من الحبشة فقتـل باليمن وأوعث وأفسد . فلمـا بلغ ذلك كسرى ، بعث اليهم وهرز فى أربعة آلاف من الفرس وأمره ألا يترك باليمن أسود ولا ولد عربية من أسود الا قتله، فأقبل وهرز حتى دخل اليمن ففعل ذلك لم يترك بها حبشيا الا قتله . »(١)

وواضح مما سبق أن الملـك سيف قد نشأ فى ظل ظروف سياسية دفعته الى بغض الحبشة والى الرغبة الملحة فى القضاء على سلطانهم .ولم يكن الباعث على ذلك هو الدين وانما الرغبة فى تخلص اليمن من سلطة الأحباش .

فاذا انتقلنا بعد ذلك الى الحـديث عن الشخصية التاريخية الرئيسية الثانية فى السيرة فانما تتحدث عن شخصية سيف أرعد .والفرق الزمنى بعيد بين سيف بن ذى يزن وسيف أرعد. فسيف بن ذى يزن عاش فى القرن السـادس الميلادى ، أما سيف أرعد فقد عاش فى القـرن الرابع عشر الميلادى فيما بين ١٣٤٤ ، ١٣٧٢ م. ولم تكن علاقة الحبشة بالعالم الخـارجى فى علاقتها باليمن وانمـا تركزت فى علاقتها بمصر البلد الاسـلامى .. أى أن النـزاع فى تلك الآونة تركز بين الاسلام والمسيحية . وأما السبب فى تلك الثورة الدينية فهو ما خلفته الحـروب الصليبية على البلاد الاسلامية والمسـيحية من رواسب نفسية . فقد أرادت الحبشة أن تظهر « أما مالعالم المسيحى بأنها مركز الامبراطورية المسيحية التى سيلتف حولهـا المسـيحيون وسيتحقق على يدى حاكمها القسيس يوحنا(٢) آمالهم وأحلامهم ، ووجدنا الحبشـة تتشـبع بفكرة الصليبيين وتتحين الفرص للاشـتراك الفعلى فى محاربة المسلمين ، ولكن بعد الشقة حال بينها وبين تحقيق هذه الأمنية ، فظلت هذه الرغبة مكبوتة فى نفوسهم يغتنمون لها الفرص للتعبير عنها فى مناسبات كثيرة . »(٣) فمن ذلك ما بلغ عمـد صـيون (١٣١٤ ، ١٣٤٤ م) أن المماليك يسيئون معـاملة الأقبـاط فى مصر . فأرسل الى السلطان المملوكى فى مصر يتهـدده بأنه اذا لم يعامل النصارى بالحسنى ، فسوف يسىء معاملة المسلمين فى بلاده ، كما هدده بأنه سيحول بين ميـاه النيـل وبين بلاده لأن منبع النيل فى الحبشة وبيدها توقف جريانه .

ومن ذلك ما حدث فى عهد سيف أرعد حين طلب سلطان مصر من بطريق الاسكندرية زيادة الضرائب المقررة على المسـيحيين ، « فرفض البطريق فزج به فى السجن . فلما سـمع بذلك سيف أرعد قبض على جميع التجار المصريين فى مملكته ، وبعث بفرسانه لطرد القوافل الآتيـة من القاهرة الى خارج الحدود الحبشية .» (٤) « كذلك قام سيف أرعد بنصيب فى محاربة ملوك الطراز الاسلامى .» (٥) ومازال يحاربهم سيف أرعد حتى مات عام ١٣٧٤ م .

---

(١) طبرى ج ١ ص ٩٥٧ ـ ٩٥٨ .

(٢) هى شخصية وهمية التف حولها الأساطير .

(٣) عبد المجيد عابدين ـ بين الحبشة والعرب ص ١٧١ (دار الفكر العربى) .

(٤) بين الحبشة والعرب ص ١٧٧ .

(٥) المرجع السابق ص ١٧٨ .

وهكذا نرى أن كلتا الشخصيتين ، أعنى شخصية سيف بن ذى يزن وشخصية سيف أرعد قد قامت بدور بارز فى تاريخ بلادها . فسيف بن ذى يزن تعصب لبلاده ضد المستعمرين الأحباش وسيف أرعد تعصب لدينه وبلاده بوصفها ممثلة للزعامة المسيحية .

والآن يتبادر الى الذهن سؤالان توضح الاجابة عنهما الظروف الاجتماعية والنفسية التى نشأت فيها السيرة . وهما أولا لماذا ربط الراوى الأول للسيرة بين شخصية سيف بن ذى يزن وشخصية سيف أرعد مع بعد الشقة الزمنية بينهما . وثانيا : لماذا أغفل الخلافات الدينية بين الأديان السماوية كما هو واضح فى علاقة الحبشة باليمن من ناحية ، وعلاقتها بمصر من ناحية أخرى ؟

من المؤكد أن السيرة قد بدأت روايتها بعد وفاة سيف أرعد أو فى زمنه على الأقل . أى أنها نشأت فى ظل الصراع الرهيب بين الاسلام والمسيحية فى عصر ما بعد الحروب الصليبية . وهذا مبرر كاف لاختيار شخصية سيف أرعد شخصية رئيسية فى السيرة . فلما أراد الراوى أن يختار شخصية عربية مناوئة لشخصية سيف أرعد اختار شخصية سيف بن ذى يزن الحميرى وجعل منه مبشرا للدين الاسلامى بل وناشرا له فى عالم الانس والجن . وهنا ينشأ سؤال آخر وهو لماذا لم يختر الراوى شخصية عربية اسلامية معاصرة للملك سيف أرعد ؟ والجواب على ذلك واضح وهو أن المماليك والسلاطين الذين حكموا مصر بعد ذلك لم يكونوا يمثلون الأصل العربى . هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى فربما لم يلتمس الشعب العربى البطولة النادرة فى شخصيات عصره ، فرجع بذكرياته الى ما ترسب فى نفسه من حوادث تاريخية واختار شخصية سيف بن ذى يزن . وربما ذكره اسم سيف ارعد باسم الملك الحميرى سيف بن ذى يزن ووجد أن التقابل بين الاسمين يضفى على السيرة نوعا من الطرافة فكلاهما سيف ولكن كل منهما يقطع ويصيب فى ناحية . هذا فضلا عن الدور التاريخى الذى لعبه سيف ابن ذى يزن .

كل هذه افتراضات ــ ولا مفر من الافتراض هنا ــ تفسر لنا الالتقاء المتعمد بين شخصيتى سيف بن ذى يزن وسيف أرعد فى سيرة الملك سيف . وننتقل بعد ذلك الى سبب تجاهل الراوى لذكر الخلاف الدينى بين الاسلام والمسيحية .

فهل يرجع ذلك الى الرغبة المتعمدة فى عدم اثارة الأحقاد والضغائن بين المسلمين والمسيحيين ، وبذلك ألقى الراوى القناع على العلاقة بينهما ، وجعله يأخذ شكل صراع بين الاسلام والكفر ؟

ربما كان هذا الرأى مستبعد بعض الشىء ، حيث أننا نجد السير العربية الأخرى التى كانت ذائعة الصيت فى ذلك الوقت ، لم تكن تخفى الصراع بين الاسلام والمسيحية ، ومثال ذلك سيرة الأميرة ذات الهمة التى حكت فى صراحة عن الصراع بين المسلمين والبيزنطيين ، وكذلك سيرة الظاهر بيبرس التى حكت عن العلاقة الحربية بين المسلمين والصليبيين .

أم يرجع ذلك الى ما روى عن مفهوم الديانة المسيحية لدى الأحباش آنذاك من أنهم « لم

يفهموا العقائد السماوية التى اعتنقوها على وجهها الصحيح ، وانما أباحوا لأنفسهم أن يمزجوها بخرافاتهم ومعتقداتهم القديمة .»؟(١)

من المؤكد أن أخبارا عن معتقدات الحبشة ، بل ومن خرافاتهم وحكاياتهم كانت تتناقل بين المسلمين ، حيث أن الصلة ، سلمية كانت أم حربية ، كانت قوية بين العرب المسلمين والأحباش . فمن أساطير الحبشة التى لقيت رواجا كبيرا ، أسطورة القسيس يوحنا التى كانت تبشر بتأسيس امبراطورية مسيحية تحت زعامته . « وهى قصة خيالية حاكها المسيحيون ليمثلوا فيها أمانيهم وأحلامهم. هذه الامبراطورية يسكنها أشخاص خرافيون ، ورجال عيونهم فى صدورهم، وهى مهد بعض الحيوانات والزواحف المخيفة المفزعة التى لا تعيش الا على لحوم الآدميين ، والمخلوقات العجيبة التى تتركب أجسامها من رءوس الطير ذات الأجنحة وأجسام الحيوان ومخالب الوحوش ، ولها ذيول من الأفاعى الحية ، يحكم هذه الامبراطورية حاكم مسيحى يعرف باسم القسيس يوحنا»(٢).

واذا كانت هذه الأسطورية التى يقال انها انتشرت انتشارا كبيرا ، قد وصلت الى العرب، فليس غريبا أن ينسج الرواة على منوالها سيرة الملك سيف الذى بشر بالاسلام فى عالم شبيه بذلك الذى بشر فيه القسيس يوحنا بتعاليم المسيحية .

وعلى هذا فقد استجابت السيرة فى شكلها العام لكثير من رغبات الشعب العربى آنذاك ، ومن المرجح أن يكون هذا الشعب هو شعب مصر ، فقد عبرت أولا عن مفهوم العقيدة الدينية لدى الأحباش من وجهة نظر الشعب العربى ، وحرصت أن تصور فى مقابل ذلك روح الاسلام الذى لا يقبل الشك . وحيث ان شخصية الملك سيف بن ذى يزن قد لعبت دورا خطيرا فى محاربة الحبشة ، فقد نسبت السيرة اليه مهمة نشر الدين الاسلامى ومهمة العمل على جريان ماء النيل فى بلاد مصر عن طريق حصوله على كتاب النيل السحرى . وبذلك يرصد نهر النيل رصدا سحريا فلا تجرى بعد ذلك مزاعم الحبشة كما يرويها التاريخ ، من أنها ستعمل على منع نهر النيل من جريانه فى أرض مصر .

وبعد أن حاولنا تحليل السيرة من ناحية الشكل ، ننتقل الى تحليلها من ناحية تركيبها البنائى .

وهنا نقسم شخوص السيرة وفقا لموضوعاتها الرئيسية الى شخوص تدفع الحياة الى النمو والتطور لصالح الانسان والحياة ، والى شخوص أخرى معارضة لتطور الحياة . ونماذج الشخوص الأولى والثانية يعيش بعضها فى عالم الانس ويعيش بعضها الآخر فى العالم الخفى . أى أن عناصر الكون كله الظاهرة منها والخفية قد تسهم فى تطور الحياة وقد تكون معوقة لهذا التطور . ولا مفر للانسان من أن يتعاون مع الوجود الكلى ، لأنه لا يستطيع وحده أن يحقق أى شىء . وقد تكون أشكال العالم الخفى شخوصا تشبه شخوص العالم المرئى وقد تكون مجرد أشياء سحرية ذات قدرة خارقة للعادة .

فالملك ذو يزن ويثرب والملك سيف

(١) بين الحبشة والعرب : ص ١٤٧

(٢) المرجع السابق ص ١٦٧

ابن ذى يزن ، شخوص تدفع الحياة الى التطور ، وبدونها تظل الحياة جامدة عن الحركة . والشيخ جياد وأخميم الطالب وبرنوخ الساحر والشيخ أبو النور شخوص قد اتضحت لها الرؤية فأصبحت تبصر الخير والشر وتميز بينهما ولكنها لا تستطيع أن تصنع صنع الشخوص الأولى لأنها ليست مسئولة عن تطور الحياة ودفعها الى الأمام . ومع ذلك فهى متربصة لها تظهر لها فى الوقت المناسب لتؤدى مهمتها وهى كشف النقاب عن مجاهل الحياة أمام البطل . ثم هناك أشكال العالم الخفى التى لا تقدم نفسها للبطل تلقائيا وانما يتحتم على البطل أن يسعى اليها ويبحث عنها حتى يجدها ومثل ذلك كتاب النيل والقلنسوة السحرية واللوح المطلسم وسيف آصف بن برخيا ، والخرزة ذات الأوجه السبعة ، والحصان السحرى .

أما الشخوص المعارضة لتطور الحياة فهى قمرية وسيف أرعد وسقرديون وسقرديوس والكهين الشعشعان والملك العملاق ، وكل هؤلاء يعيشون فى عالم الانس . أما التنين والبرق اللامع والرهق الأسود فهى أشكال تعاونها فى العالم غير المرئى .

وهناك شخوص لا تنتمى الى المجموعة الأولى كما أنها لا تنتمى الى المجموعة الثانية . فهى ليست شريرة ولكنها فى الوقت نفسه لا تمثل القوى الدافعة للحياة . وسبب ذلك أنها تنظر الى الحياة من جانب واحد ، كما أنها تحن الى الشىء القديم الجامد الذى يجذبها اليه . ومن هذه الشخوص طامة ومنية النفوس وناهد .

وفى وسط هذا الكون المهول عاش الملك سيف بن ذى يزن . وقد بدأ يصطدم بالحياة قبل أن يعيشها ، وقبل أن يعرف هدفه . فعاش فى معركة مع القوى الشريرة التى تتمثل فى بداية الأمر فى أمه قمرية ولكن سرعان ماظهرت القوى الخيرة المناوئة لها التى تتمثل فى الغزالة المسحورة وابنتها عاقصة . وهكذا بدأ سيف حياته بين صراع القوتين وهو يحس بهدف غامض يدفعه الى الحركة الدائبة ، حتى اتضح له الهدف حينما قابله الشيخ جبار الذى يبصر ولا يملك أن يصنع وقال له :

«أهلا وسهلا بملك بلاد اليمن وغيرها من الأمصار والدمن ، الحاكم على هذه الأقطار وسائق النيل من بلاد الحبش الى أراضى الأمصار ، مانع الظلم والفتن وحاكم صنعاء وعدن وصحارى الحبش وما يتبعها من القرى والمدن ، الملك سيف بن ذى يزن » . وتعجب الملك سيف من هذا النداء ، اذ كان يعرف حتى هذه اللحظة أن اسمه وحش الفلاه وأنه ابن الملك أفراح . أما وقد عرف الآن حقيقة نسبه كما عرف مهام أموره فكان عليه اذن أن يتحرك ، لا بين مجاهل الحياة ، ولكن بين حقائق واضحة ليصل الى هدف محدد .

ان الملك سيف بن الملك ذى يزن العربى الأصيل هو الذى يستطيع وحده – دون أى انسان آخر – أن يحقق مطامع شعبه . وبهذا تكشف السيرة منذ بدايتها عن أهم ملامح البطل الشعبى ، انه البطل الذى يتصل بجذوره اتصالا مباشرا وهو الذى يتصل فى الوقت نفسه بالوجود الكلى اتصالا وثيقا ، الوجود المرئى وغير المرئى من ناحية ، والوجود بعناصره الخيرة والشريرة من ناحية أخرى . انه البطل

الذى يستطيع أن يبحث عن كنوز شعبه الخفية ويحرص عليها ويستفيد من قوتها السحرية الخارقة . فاذا تهاون فى الاحتفاظ بها ، فقد يحتفظ بها عدوه ، وهى فى الوقت نفسه تؤدى دورها لأنها لا تملك أن ترفض طلب من يحركها ومن يمتلكها . فحينما كان الملك سيف ينسى ــ فى زحمة الحياة ــ الحرص على الاحتفاظ بلوح عيروض ، كان يقع هذا اللوح فى حوزة أمه قمرية . ولم يكن عيروض يملك أن يرفض طلب قمرية التى استطاعت أن تستحوذ عليه ، كما عرفت كيف تستخدمه . فلما ذكر سيف عيروض بأنه خادم له أجابه عيروض « مابقيت تكلمنى ولا كلمة واحدة ، فانك فرطت فى لوحى ولا عرفت قيمتى وضيعتنى ، انك أنت ظالم لنفسك حيث انك أعطيت اللوح لأمك ، فقاس بنفسك طول همك ولا تطل معى كلاما . »

وكما كانت القوى الشريرة تشكل عقبة للملك سيف ، فان شخوص المجموعة الثالثة كانت تشكل له عقبة أخرى فهى لم تكن من طبيعته فتتجاوب معه تماما ، كما أنها لم تكن ذات طبيعة شريرة فيحاربها . وقد كان سيف يتصرف مع هذه الشخوص اما باهمالها أو الحرص على تبصيرها بهدفه وبالحياة التى يسعى اليها . فقد كانت طامة تسعى الى هدف واحد فقط هو الزواج من الملك سيف . فلما رأت سيف منشغلا عنها بأموره خطفت منه القلنسوة السحرية على سبيل التهديد فما كان من الملك سيف الا أن أهملها وقال لها : « يا سيدتى خذيها بارك الله لك فيها، ويا ليتكم ما عاوتتمونى ولا بالخير جاملتمونى ، وبعدما انصلحت أحوالى بدلتم المعروف وفعلتم بدله المتلوف ، وأنا ما أتوكل على القلنسوة لأن الذى يساعدنى هو الله فالق الحب والنوى » . أما منية النفوس فقد جذبتها حياتها الأولى اليها ، فارتدت لباسها الريشي وطارت الى بلادها . ورحل الملك سيف وراءها ووجدها تعانى صنوف الذل . وكان هذا بمثابة التكفير عن ذنبها فرجعت مرة أخرى لتعيش مع الملك سيف.

وأما ناهد فقد كانت مثل طامة تسعى لهدف واحد وهو زواج سيف منها . ولكن كان على الملك سيف أن يقوم بمغامراته ، فتركها ورحل لحاله ، فدعت عليه بأن يقاسى الأهوال ويعود اليها عريانا . وسمع سيف النداء فرد عليها قائلا « وتكونى عمياء ودواؤك على يدى » . ثم تحققت الدعوتان ، فقاسى سيف أهوال البحر وتصادف مع ناهد صدفة وكانت قد أصيبت بالعمى فعالجها بالحيوان السرطانى الذى كان قد حصل عليه فى مغامراته .

وهكذا نرى أن تحليل البناء التركيبى يطلعنا على مشكلات كلية تتلخص فى نظرة الانسان للكون الذى يعيش فيه . ومن ثم فهو يرسم صورة للانسان وهو يتعامل ويتفاعل مع عناصر هذا الكون . ولا عجب بعد ذلك أن عبرت سيرة سيف بن ذى يزن عن أفكارها فى اطار أسطورى . ذلك أنها ــ على خلاف السير الأخرى ــ لا تهدف الى تصوير الواقع الذى عاشه الشعب العربى فى فترة من فترات تاريخه فحسب ، وانما تهدف كذلك الى الكشف عن تصور الشعب للوجود الكلى الذى يعيشه . وحيث ان هذا الوجود الكلى يتمثل منذ أقدم العصور حتى الآن فى قوى مرئية وأخرى خفية، فقد تجول سيف بن ذى يزن فى العالمين الخفى

والمرئى بقصد تحقيق الانسجام الكامل بين عناصر الوجود . وقد حققت السيرة هذا الانسجام بعد أن قضى سيف على العناصر المتمردة المتنافرة مع الحياة ، وأصبحت العناصر كلها تعيش بعد ذلك من أجل هدف واحد بعد أن أصبحت تؤمن بعقيدة واحدة .

وربما كانت هناك أنماط أدبية معينة شجعت القصاص العربى لأن ينسج سيرته من هذا النسج الأسطورى ، وهو الذى كان يخشى التعبير عن تصوره للعوالم السماوية ، بخاصة بعد مجىء الاسلام . ومن ذلك ما روى عن النبى سليمان وعن كنوزه وعن تسلطه على عالم الجن . وقد استغل القصاص ذلك كل الاستغلال فجعل سيف يبحث عن كنوز الملك سليمان ، وجعل عاقصة تطلب بدلة بلقيس مهرا لزواجها من عيروض ، بل جعل الرهق الأسود من الجن الذين عصوا النبى سليمان . ثم ان سيف آصف ابن برخيا الذى كان الملك سيف يقطع به رقاب الانس والجن ويختبر به المؤمن الصادق والمسلم المنافق ، كان ملكا لأحد وزراء النبى سليمان.

ومن ذلك كذلك تلك الروايات الشعبية التى روت عن قصة الاسراء والمعراج . ومما لاشك فيه أن كلا النمطين يعتمد على أصل دينى ، ولكن حيث ان الأصل الدينى قد تعرض لعالم الجن فى قصة النبى سليمان ، وحيث انه قد اقتحم عالم السماء فى قصة الاسراء والمعراج ، فقد وجد القصاص الشعبى ذلك فرصة سانحة لأن يدخل الانسان فى معركة مع عالم الجن ، كما وجدها فرصة سانحة لأن يتخذ من عناصر قصة الاسراء موضوعات تدخل فى تكوين السيرة الرئيسى •

فقد ركب الملك سيف الهايشة وهى حيوان أشبه بالفرس ، وطارت به الى أجواء العالم الخفى فى أقل من لمح البصر • وربما كان هذا صدى لموضوع البراق الذى حمل النبى الى بيت المقدس . وقد لعب الخيال الشعبى دوره فى تصوير البراق فى قصة الاسراء والمعراج الشعبية مما جعل هذه الصورة تعيش فى خيال الشعب حتى اليوم •

ولنقارن بين نص من قصة الاسراء وآخر من سيرة سيف لنرى الى أى حد قد تأثرت السيرة بقصة الاسراء الشعبية .. تقول قصة الاسراء(١) على لسان النبى عليه السلام : « ونظرت الى ملك يداه تحت العرش ورجلاه فى تخوم الأرض السابعة السفلى وله ريش أشد بياضا من الثلج وله جناحان اذا نشرت جاوزت المشرق والمغرب فقلت يا أخى جبرئيل من هذا ، قال ملك موكل اسمه ميكائيل ، اذا كان الثلث الأول من الليل ينادى أين الذاكرون الله تعالى ، واذا كان الثلث الأوسط نادى أين المستغفرون الله واذا كان الثلث الأخير نادى يا غافلين اذكروا الله ثم يرفع رأسه ويقول سبحان الملك القدوس ، سبحان الملك الحى القيوم ، سبحان ذى العزة والجبروت سبحان من لا يخلو عن علمه مكان ، سبحان من لا يشغله شان عن شان ، سبحان ذى الجلال والاكرام . فاذا سمعت ديوك الأرض صراخه خفقت بأجنحتها ونادت كما ينادى » .

وفى سيرة سيف ، حملت الجن الملك سيف الى مكان كنوز النبى سليمان . وفى أثناء التجوال وجد نفسه فوق جبل شاهق فسأل

(١) مخطوط الوارد بجامعة توبنجن بألمانيا الغربية تحت رقم Patterm I 655 ص ٤٢ ظ

سيف الجنى أرميش وقال : « لكن يا أخى من يحكم على هذا المكان فقال يحكم عليه أستاذك وهو الخضر عليه السلام . فقال له يا سيدى فرجنى على بعض هذه الأماكن فقال له مرحبا بك ، ووضع يده ومشيا سبع خطوات ووقف فهبت عليهما روائح ذكية ، ونظر الملك سيف فرأى قصورا عالية وفيها قناديل معلقة وهى قناديل من الجوهر تضىء آناء الليل وأطراف النهار ولم يكن فيها لا دهان ولا نار فلما نظر الملك سيف تعجب وقال لا اله الا الله ابراهيم خليل الله ، سبحانه خلق الخلق وأحصاها وبسط الأرض ودحاها ، ورفع السماء وأعلاها جل جلاله وعز جاهه . ثم ان الملك سيف التفت الى ذلك الرجل وقال له ياسيدى وأنتم كيف تصلون الى هذه الأماكن وأنتم فى مساكن بعيدة عنها ، بأى شىء تعرفون الأوقات حتى تصلوا فيها ؟ فقال : اعلم ياملك ان فى هذا الجبل ملكا من عند الله تعالى ، اذا جاء الوقت وقف على رأس الجبل وينادى الله أكبر ياعباد الله اذكروا الله تعالى ، فاذا قال ذلك تجاوبه الملائكة والوحوش والأشجار وكل ما كان من الحيوان والهوام وبعد ذلك تصيح الطيور التى على الجبل والأشجار والأنهار فنعلم أن الوقت جاء أوانه فنصلى (١) » .

وفى نص آخر من السيرة يقول الراوى عن الملك سيف بن ذى يزن : « ولم يزل فى منامه حتى مضى ثلثا الليل ثم أفاق من منامه وتنبه لنفسه واذا به يجد نفسه سائرا بين السماء والأرض والريح يزفه ويزمر فى آذانه . فلما عاين ذلك تعجب غاية العجب وقال لحامله أيها العون الشديد والشيطان المريد من أنت ومن أرسلك حتى خطفتنى . وما الذى تريده منى » (٢) .

فتأثير قصة الاسراء الشعبية واضح ولاشك فى تصورات القصاص الشعبى . وقد أتاحت قصة الاسراء فرصة للخيال الشعبى لأن يعبر من خلالها عما يساوره من أفكار ازاء العالم الآخر ، ولهذا فقد وردت لهذه القصة عدة روايات مايزال كثير منها مخطوطا لم يدرس بعد .

ولعل هذا يدفعنا الى السؤال عما اذا كانت سيرة سيف بن ذى يزن تعد حكاية خرافية أم حكاية شعبية . وقد سبق أن ميزنا بين النوعين فى كتابنا عن « أشكال التعبير فى الأدب الشعبى » ، وفى بحثنا عن سيرة الأميرة ذات الهمة الذى نشر فى مجلة تراث الانسانية . فليس هناك داع اذن لأن نعيد ما سبق أن ذكرناه . ولكننا نشير الى أن أهم ما يميز الحكاية الخرافية عن الحكاية الشعبية هو صورة البطل ومدى ارتكاز لكل منهما على الحوادث التاريخية التى يعيشها الشعب . فالبطل فى الحكاية الخرافية لا يتسم بملامح محددة وانما هو نموذج . أما فى الحكاية الشعبية فالبطل واقعى عاش ذات يوم فى التاريخ ولهذا فهو يتسم بملامح محددة ، وبالمثل فان الحكاية الخرافية لاترتكز على حوادث تاريخية عاشها الشعب ، أما الحكاية الشعبية فأساسها الواقع التاريخى والحوادث التاريخية ، وحيث ان البطل فى سيرة الملك سيف ذو ملامح مميزة لأنه بطل تاريخى ، وحيث انها ترتكز على

(١) السيرة جـ ٢ ص ١٧١ .

(٢) السيرة جـ ٤ ص ٢٤٠

حوادث تاريخية كما سبق أن ذكرنا ، فهى اذن تعد حكاية شعبية على الرغم من تصوير حوادثها فى اطار أسطورى ، وليس الدافع وراء خلق هذا الجو الأسطورى سوى الرغبة فى التعبير عن موقف الانسان بين العالم المرئى وغير المرئى .

وبقى أن نشير الى موضوعات السيرة التى تكون محتواها ، وتنقسم هذه الموضوعات الى معتقدات شعبية والى أخبار متوارثة والى موضوعات خرافية يبدو أثر ألف ليلة وليلة فيها واضحا ، ثم الى موضوعات نفسية مبعثها اللاشعور الجمعى .

والمعتقدات الشعبية التى ماتزال تعيش بين شعبنا حتى اليوم ، واضحة فى السيرة ، ومن أهمها اتخاذ الرمل وسيلة للتنبؤ بالغيب ، روح الميت التى تظهر فى شكل طائر ، الأماكن المرصودة التى لا يفك عنها الرصد سوى شخص معين يتلو كلمات محددة ، الاعتقاد فى أن المرض روح شرير يستكن داخل جسم الانسان .

وأما الأخبار المتوارثة فتتمثل فى تلك الروايات التى رواها الشعب حول بعض الشخصيات الدينية مثل النبى سليمان وبلقيس والخضر عليه السلام ، وقد سبق أن أشرنا الى أثر تلك الروايات على بعض حوادث السيرة .

ويحق لنا أن نتساءل بعد ذلك عن مفهوم الدين بالنسبة للشعب ، ان الدين لا ينفصل عن السحر ، ولهذا فان مايميز الكفار فى السيرة عن المسلمين هو أن الكفار يعبدون النار وأما المسلمون فهم يعبدون الله الذى لا شريك له ، وخلاف ذلك فان كلا الطرفين يستخدم صنوفا من السحر ، وما يميز استخدام كل من الطرفين لهذا السحر هو أن ممارسة المسلمين للسحر مصحوبة بذكر الله ، أى أن السحر لا تتضح قوته الا بقدرة الله عز وجل ، فقد أخذت الحكيمة عاقلة ورقة وكتبت عليها وعزمت ورفعت وجهها الى السماء وقالت : « اللهم ياعظيم العظماء يا من علم آدم الأسماء ، الهى أسألك بقدرتك يا قدير » (١) واذا بالورقة تفعل فعلها السحرى ويتحقق ماكتبته عاقلة عليها .

وأثر ألف ليلة وليلة واضح فى السيرة ، فاللوح السحرى الذى يمعك فيحضر خادمه ورحلات سيف فى الجزر السبع والخرزة السحرية ذات الأوجه السبعة كل هذه موضوعات تكثر فى ألف ليلة وليلة واستغلت فى السيرة أحسن استغلال .

فاذا انتقلنا الى الموضوعات النفسية فاننا نجدها وفيرة فى السيرة ، ولا تنفرد سيرة سيف بن ذى يزن بذلك ، وانما تشاركها فى ذلك كل أشكال التعبير الشعبى مما جعل المنهج النفسى فى دراسة الأدب الشعبى يسود حتى الآن ، وتتضح المشكلات النفسية الجمعية فى السيرة منذ بدايتها . فقد اختفى الاب ذو يزن من حياة ابنه سيف قبل ولادته ، ووقع الابن بعد ذلك تحت سيطرة أمه ، وأبعدته عنها ، ثم ظلت تحاربه وتوقعه فى المهالك حتى قتلت الأم واختفت من حياة الابن كذلك ، وكل هذا يعبر عن المشكلات النفسية التى يعيشها الابن منذ ولادته حتى يصل الى مرحلة النضج والاستقلال وكل ابن يعيش تحت سيطرة أمه فى المرحلة الأولى من

(١) السيرة جـ ١٢ ص ١٤٩

حياته ويفسر هذا اختفاء الأب من حياة الابن ووقوعه تحت سيطرة أمه ، وحيث ان انتزاع الابن لنفسه من سيطرة الأم حتى يصل الى مرحلة الاستقلال ، لا يتم الا فى ظلال متاعب نفسية عنيفة ، فقد عبرت السيرة عن هذه المرحلة أصدق تعبير وأعمقه . فعلى الرغم من أن الملك سيف كان يدرك تماما مدى خطورة أمه عليه ، وعلى أنه كان يعلم أنها هى التى كانت توقعه فى المهالك ، فقد كان يصفح عنها ويعيش مرة أخرى فى كنفها ، ويستسلم لسطوتها ، وكانت القوى السحرية التى تتمثل فى عاقصة وعيروض تحذره وتنذره ، ومع ذلك فلم يكن من اليسير على سيف أن يتخلص من أمه ، لقد قال له عيروض محذرا ومنذرا : « يا ملك أنت مالك عقل ولا تقبل نصيحة ناصح ما ، كأنك قطعة حجر يعثر فيك كل واحد ، كيف تريد أن تبقى ملكا وسلطانا ويخدمك الانس والجان وتدور يدك على حكماء وسحراء وأرباب علوم الأقلام وأخبار وكهان وأنت على هذا الحساب ناقص العقل خرفان ويدخل عليك بدع امرأة كافرة بالعزيز الديان وتشتت شملك من مكان الى مكان ، وأنت ما أنت عاقل كأن عقلك ناقص مختلط بجنان . أتعبت قلب برنوخ الساحر وأقام أياما وليالى حتى خلص لوحى منها بالاحتيال ، كأنك ماتعبت فى الحصول عليه ، حتى رميته من رقبتك وفرطت فيه » .

وتكشف هذه العبارة عن مدى الصراع الذى يعيشه الانسان فى أثناء انتقاله من طور لآخر فى مراحل حياته ، فنفسه مفعمة بالرغبات بدافع الارادة العارمة التى تدفعه الى تحقيق الكل الكامل ، ومع ذلك فان هناك قوة تشده لأن يعيش فى الماضى الذى لايحقق له أى شىء ، ولا مفر للانسان السوى من آن يتخلص — رضى أم لم يرض — من كل عقبة تحول دون تطوره ، ولهذا فقد اختفت قمرية من حياة الملك سيف ، ولكن من الذى قضى عليها ، انه ليس الملك سيف وانما عاقصة أخته فى الرضاع فى عالم الجن ، وهى رمز نفس آخر للأنا الأعلى أو للنموذج الأصلى على حد تعبير يونج ، والنموذج الأصلى هو القوة الخيرة التى تعيش داخل الانسان لتدفعه الى تحقيق الحياة الكاملة ، فلما قتلت عاقصة قمرية وظهرت بعد ذلك للملك سيف قال لها : « ياعاقصة أتيت تذكرينى بهمى وغمى بعد ما قتلت أمى ، فقالت له والله انك ارتحت منها ومن فعلها وكيف لا أقتلها وهى فى كل وقت ترميك فى المهالك وهى كافرة بمالك الممالك ، وحق مقام ابراهيم ان رجعت تذكرها ثانية مابقيت أعود اليك » .

ولعل هذا يشير الى مدى المعاناة التى يعانيها الانسان فى سبيل التخلص من مرحلة للدخول فى مرحلة أخرى ، فعلى الرغم من المتاعب التى لاقاها سيف من أمه ، وعلى الرغم من أنها قد قتلت وارتاح منها ، فهو مايزال يحن اليها ، ولكن النموذج الأصلى أو الأنا الأعلى الذى يرمز اليه بعاقصة يهدده ان هو عاد يذكرها ، ولعل هذا يفسر لنا كذلك أن مغامرات الملك سيف الحقيقية فى سبيل تحقيق مآربه لم تبدأ بحق الا بعد أن انتهت مغامراته مع أمه .

والشيخ الطيب الذى يظهر فجأة فى السيرة ليعاون الملك سيف ويخبره بأنه ينتظر قدومه منذ زمن ليس سوى رمز للاشعور الذى يطفو فجأة ليذكره بنفسه وبشخصيته ، تماما كما

عرفه الشيخ جيار بحقيقة نسبه وباسمه والمهام الملقاة على كتفه .

وبهذا نكون قد حللنا السيرة من ناحيـــة الشكل والتـــكوين البنائى والمحتوى ، وهى مناهج ثلاثة لا مفر من اتباعها فى تحليل الأدب الشعبى بصفة خاصة ، لأنها تسهم جميعـــا فى الكشف عن شخصية شعب بذاته ، كما تسهم فى الـــكشف عن طموحه وآماله وعن مستوى التعبير الجمالى عنده .

فسيرة سيف بن ذى يزن تعد فى ظاهرهـــا صدى لمشكلات سياسية عاشها الشعب العربى فى فترة من فترات تاريخه ، حينما كانت الحبشة تمثل ركنا أساسيا من أركان العالم المسيحى ، وكانت لهذا السبب تهدد مصر البلد الاسلامى بأنها ستمنع عنها ماء النيل، وقد أجاب القصاص الشعبى على ذلك بأن النصر له ولدينه ، وأن ماء النيل لن يحجز عنه لأنه يملك كتاب النيل السحرى الذى يجعل مياه النيل تتدفق فى بلاد مصر دائما أبدا . هذه المشكلة السياسية التى تبرز من مجرد تحليلنا لشكل السيرة ، تكملها المشكلات الانسانية والنفسية التى تتضح من خلال تحليل بنـــائها التركيبى ، ثم ان هـــذه المشكلات جميعا لايمكن أن يعبر عنها الشعب فى الشكل الفنى المتكامل دون أن يعبر من غير عمد عن معتقداته وتصوراته .

حقا ان الحكاية الشعبية معقدة كما يقول فيشر ، ولكنها ليست أقل تعقيدا من الشخصية الفردية أو من الشخصية الجماعية .

د. نبيلة ابراهيم